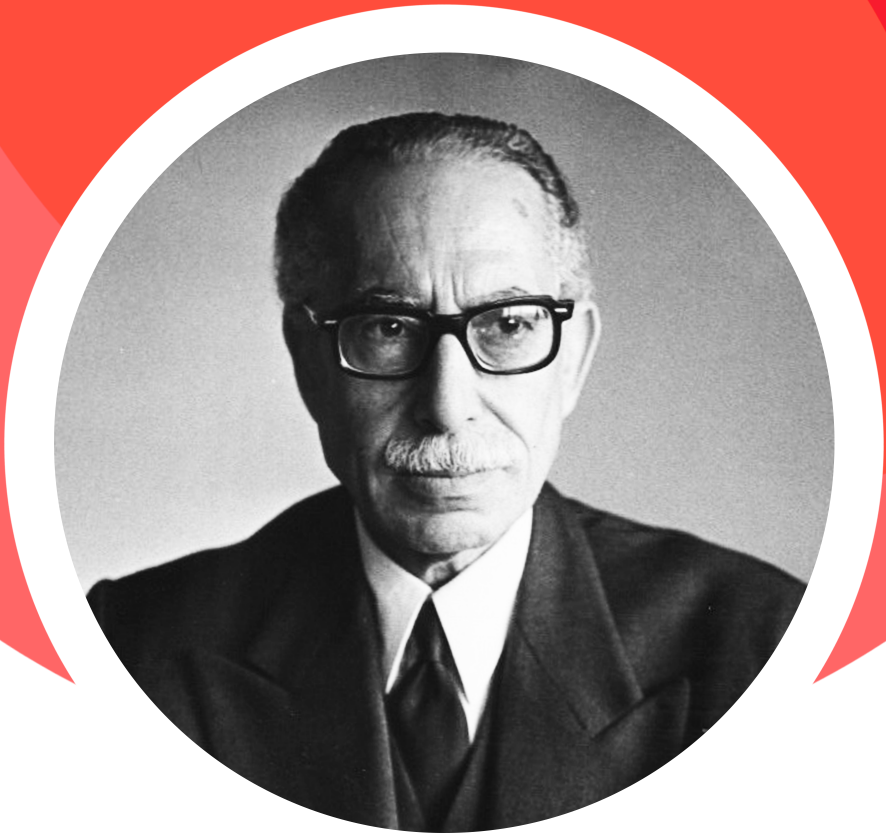




قلت ذات يوم

توفيق الحكيم

قلت ذات يوم

تأليف
توفيق الحكيم



قلت ذات يوم

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٥٢ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

٩	قضية الفن القصصي في القرآن
٢٣	فن ... «الزحلقة»
٢٧	فتياتنا في الحرب
٣١	بيني وبين ... «خصومي الشرفاء المعقولين»!
٣٥	شعب يريد النصر
٣٧	شعب الله بغير الله
٣٩	عيشوا في خطر
٤١	الصحافة امرأة ...
٤٣	المطبخ الحديث
٤٥	تربية الرأي العام
٤٧	المسوخات
٥١	القبج الجميل
٥٣	سلاح المرأة الذي لا تستعمله
٥٥	أسعد زوجين
٥٧	المرأة بعد ٢٠٠٠ سنة
٦١	المرأة والأسد
٦٥	جنون وجنون
٦٩	كومبارس مسرحيتي من الرهبان
٧٣	أشخاص رواياتي يطالبونني بإطعامهم
٧٧	الجاحظ ينظر إلينا

٨١	حطم بيت الزجاج
٨٥	ناشئون حائرون
٨٩	تبعاتنا نحو الشباب
٩٣	إيقاظ التفكير
٩٧	الشحاذون
٩٩	الساقية تدور
١٠١	ذُمَّ بضاعتك تَبِعْهَا
١٠٣	ألف ليلة وليلتان

صَرِيرُ الْقَلَمِ الْيَوْمَ ... هُوَ نَفِيرُ الْإِصْلَاحِ غَدًا.

توفيق الحكيم

آخر ساعة ١٩ فبراير ١٩٣٩ م

قضية الفن القصصي في القرآن

(١) رسالة جامعية يطالبون بحرقها

قامت في مصر وإنجلترا في وقت واحد حركة غريبة وهي مُناقشة الكتب المنزلة، وبحثها على أسس علمية، ومحاولة اتهامها بالمبالغة، وبأن ليس كل ما فيها من قصص ومعجزات يطابق الحقيقة والتاريخ الصحيح.

فعندنا قامت قيامة بعض العلماء على الأستاذ محمد أحمد خلف الله؛ لأنه وضع رسالة قدمها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة) عن «الفن القصصي في القرآن الكريم» وقال فيها إن «قصصه لم تعتمد على أصل من واقع الحياة أو من التاريخ، بل قد يكون ذلك من عمل الفن الذي لا يعنيه الواقع التاريخي. وإنما ينتج عمله ويبرز صورته على أساس الحقيقة الفنيّة والقدرة على الابتكار والتبديل.»

حرق الرسالة

وقد طالب البعض بحرق الرسالة على مرأى ومشهد من أساتذة وطلبة كلية الآداب، وطالب آخرون بفصل الأستاذ خلف الله. ورد الأستاذ خلف الله وفند هذه التهم ... وأبدى استعدادة لحرق الرسالة لو ثبت اتهام المتهمين من أنه يدعو إلى الكفر أو يخرج بالناس إلى الإلحاد.

وقد طالبت إحدى الصحف باتخاذ إجراءات حاسمة وقالت: إذا ثبت أن ما نُقل عن رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» قد ورد فيها كما نُقل، فلا يكفي أن يحرقها مؤلفها بيديه أو بيدي غيره على مرأى ومشهد من الأساتذة والطلاب، بل لا بدّ أولاً أن يعلن رجوعه إلى الإسلام، وأن يُجَدِّد عقد نكاحه على زوجته إن كان متزوجاً، وأن يتوب إلى الله

توبة نصوحًا يحسن بها إسلامه في مستأنف حياته، وأن يقوم بكل ما يقوم به من ارتكب جريمة الردة عن دين الإسلام ثم تاب إلى الله منها.

سوابق في مصر

وليست هذه الحركة هي الأولى من نوعها في مصر، فقد سبق أن أَلَف الأستاذ علي عبد الرازق وزير الأوقاف (حاليًا) كتابًا عن «الإسلام وأصول الحكم» فقامت قيامة الأزهر، واجتمعت هيئة كبار العلماء، وفصلته، واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيور باشا احتجاجًا، وأُقيل وزير العدل من منصبه — وكان عبد العزيز فهمي باشا — لهذا السبب.

وحدث مرة أخرى أن أَلَف الأستاذ الدكتور طه حسين كتابًا عن «الشعر الجاهلي» شكَّك فيه في بعض المعتقدات، قامت قيامة البرلمان، وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه، فهدد عدلي باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة حماية للبحث العلمي. ومن العجيب أنه في نفس الوقت الذي تقوم فيه هذه الحركة في مصر، تقوم حركة أخرى مشابهة لها في لندن.

فقد تلقينا من مراسل «أخبار اليوم» في لندن الرسالة التالية:
دخلت الأزمة الدينية في إنجلترا مرحلة جديدة، فقد نشرت جريدة السانداي بيكتوريال «من صحف العمال» وتبلغ مقطوعيتها ثلاثة ملايين نسخة، الاستفتاء التالي لقراءتها:
يقول المطران بارنز: إن الشباب في عصر العلم يؤيده في عدم إيمانه بمعجزات المسيح، فما رأيكم؟

وهذه أول مرة في التاريخ يُسْتَفْتَى فيها الشعب في مسألة دينية خطيرة كهذه.

هل كانت مريم العذراء عذراء؟

وقد أثار المطران الإنجليزي بارنز في كتابه «قيام المسيحية» موضوع أن المسيح قام بعد صلبه، وقال: إن قصة القيامة قصة وهمية، كما أنه نفى أن السيدة مريم كانت عذراء!

وأكد أنها لم تكن عذراء، وأن سبب هذا الاعتقاد يرجع إلى سوء ترجمة كلمة عبرية معناها «فتاة صغيرة» فاختلط الأمر على الناس وترجموا الكلمة العبرية إلى «عذراء».

المعجزات إشاعات سخيفة

وقال المطران: إن أبحاثه أظهرت أن كل المعجزات هي إشاعات عامية سخيفة، وإن الفن القصصي لعب دورًا هامًا في صياغتها. كما نفى المطران قصص ولادة بيت لحم والهرب إلى مصر. ونفى أن المسيح مات وهو شاب، وأثبت أنه مات في سن الخمسين. وقال المطران: إن المسيح لم يكن إلهًا، ولكنه كان رجلًا صالحًا يحسن الاقتداء به.

رأي رئيس الأساقفة

وقد أثار كتاب المطران ثورة في الكنيسة، وطالبه أسقف كنتبري رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية بالاستقالة فرفض، وصرح كبير الأساقفة في الصحف بما يأتي: إذا آمَنتَ بمعتقدات المطران بارنز فلتؤمن، وليكن المسيح معك ... ولكنها ليست معتقدات الكنيسة.

وقالت الصحف الإنجليزية: إن هذا لا يصح أن يكون الرد على أبحاث المطران، وأشارت إلى أن مؤتمر الكنيسة الذي اجتمع عام ١٩٢٢م واستمر ١٤ عامًا قرر عدم الأخذ بحرفية الإنجيل، وقد اختلف الأعضاء في مسألة مريم العذراء، ولكنهم قرروا أن «القيامة» أساس من أسس المسيحية.

الاشتراكية هي السبب

وقامت قيامة دوائر المحافظين لهذه الحركة، وقالت إنها نتيجة طبيعية لانتشار مبادئ الاشتراكية والشيوعية التي تحاول أن تحطم كل شيء، وفي مقدمة ذلك الأديان. وقد أثّرت مسألة عودة تركيا إلى الدين، وانتصار الجنرال ديغول، وقيل: إن هذا انتصار للدين في وقت بدأت فيه الموجة المضادة الأخرى تحاول أن تسجل انتصارات لا دينية في إنجلترا.

صاحب الرسالة يدافع عن نفسه

«أتحزّر في الأزهر ورجعية في الجامعة؟»

إلى الأستاذ توفيق الحكيم

هذه قضية النكسة الجامعية أعرضها عليكم وعلى القراء:
في مايو الماضي (١٩٤٧م) قدّمتُ رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب
موضوعها «الفن القصصي في القرآن الكريم».
أحال عميد كلية الآداب هذه الرسالة إلى لجنة الفحص فأمن بها بعض
وأنكرها آخرون.

كانت حجة المنكرين الظاهرة، الخروج على الدين. ولما كنتُ أعلم بنوايا
القوم ومقاصدهم الخفية فقد أُلقيتُ بالرسالة بين يدي نفر من رجال الدين؛
ليذكروا لنا حكم الله في مُفسّر كتاب الله.

وهنا تظهر الفروق الحقيقية بين العلماء.

أما الأستاذ الشايب أستاذ الأدب في كلية الآداب فقد تقدّم غير هيّاب ولا وجيلٍ
وأفتى بأن صاحب هذا البحث قد ارتدّ عن دين الإسلام، مع أن الأستاذ الشايب
لم يتعلّم من الدين إلا ما يمكنه من التدريس في المدارس الابتدائية لبابي الوضوء
والصلاة!

وأما الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عضو هيئة كبار العلماء والمتخصص في
الدين، فقد توقّف حتى ينتبث من حكم الله في مُفسّر كتاب الله.

ولم يقف عند هذا الحد بل أشرك معه في الرأي المفتي السابق وعضو هيئة
كبار العلماء الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المجيد سليم.

ثم انتهيا إلى أن المفسّر لا يخرج عن الدين إلا إذا خالف الإجماع في تفسير
قد تواتر تواتراً عملياً، أو أنكر أن تكون هذه الآية أو تلك من كتاب الله.

أما غير ذلك فهو مجتهد، إن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران.

ولمّا لم يكن القصص القرآني محل إجماع من المفسرين فضلاً عن
المجتهدين من علماء الدين والفقهاء.

ولمّا لم يكن القصص القرآني محل تواترٍ عملي لقضية من قضايا الدين أو
قاعدة من قواعد الإسلام.

فإن المتحدث عنه أو المخالف فيه يكون مجتهداً، إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران.

فما رأي الأستاذ الحكيم فيما بين هؤلاء وهؤلاء؟
أليس يرى معي أن ذلك إيدان بالتحرُّر من ربكة الجمود في الأزهر، وأنه دليل الرجعية في كلية الآداب؟

إن الدراسة الجامعية لا تستقيم إلا مع الحرية، وإنا لنعجب كيف يكون الأساتذة الجامعيون قادة الرجعية في البيئات العلمية؟ وكيف لا يشعرون بأن في ذلك الخطر كل الخطر على التقدم العلمي في هذه الديار؟! ولعل العجب يأخذ حدّه ويبلغ منتهاه حين نعلم أن تلك الرجعية لا يُقرُّها الدين ولا يرضى عنها من رجاله العلماء.

هذه هي قضية النكسة الجامعية، عرضتها عليكم وعلى القراء. ولكل منهم أن يعلق على ما يشاء بما يشاء.
والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد أحمد خلف الله
كلية الآداب جامعة فؤاد

* إذا صح ما جاء في هذا الدفاع من أن علماء الدين في بلادنا قد أصدروا هذا الحكم المتحرِّر، وأن رجال الجامعة قد أفتوا بذلك الرأي المتأخّر ... فإن الأمر يدعو حقاً إلى العجب. ولقد اطلعنا في عين الوقت على تلك البرقية التي تروي خبر المطران بارنز وإنكاره لمعجزات المسيح ... فلمْ يَعْذْ يدهشنا أن نسمع غداً بقيام أساتذة جامعة لندن يفتون بأن ذلك المطران يستحق الحرق حيّاً!

ما الذي حدث الآن بالضبط في عقول الناس؟ ... رجال العلم الروحي يريدون الخروج إلى نور المنطق العقلي، ورجال العلم العقلي يريدون الدخول إلى معبد النور الإلهي! إنه ولا شك عصر الجشع ... كل طائفة لا تقنع بما في يدها وتنظر إلى ما في يد الآخرين ... حتى في المسائل العقلية والدينية كل هيئة تعتقد أن «الحقيقة عند غيرها!»

إنني أفهم موقف علماء الإسلام ... فهم يفتون طبقاً لقواعد مُقرَّرة في هذه الرسالة الجامعية، وشاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا لنا النصوص القديمة بأضواء جديدة ... دون أن يحيدوا عن روح الدين ... وجوهر العقيدة ... ولكن الذي لست أفهمه هو موقف أساتذة

الجامعة العصرية الذين يحكمون بالكفر على طالب، ويطفئون بأيديهم الجامعة مشعل الحرية الفكرية الذي هو صلب عملهم وعمود رسالتهم.

ولئن استطعت أيضاً أن أفهم هؤلاء فإنني لا أستطيع أن أفهم أبداً موقف المطران الإنجليزي بارنز الذي يحلل المسيحية كما يحلل تاجر الزيوت فن «روفائيل» أو نجار المسرح فن «شكسبير»!

لماذا يهدم المطران الوقائع التاريخية في الدين؟ وهو الذي يجب أن يعلم أن «الحقيقة» في الدين أسمى من التاريخ ومن المنطق ومن كل العلوم العقلية لأن شمس «الحقيقة الدينية» لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشري!

هل يستطيع ناقد أن ينال من فن «روفائيل» لو أثبت لنا أن زيت لوحاته كان زيت خردل أو زيت خروج؟! وهل يستطيع باحث أن يطعن في فن «شكسبير» لو برهن لنا على أن «جوليت» ماتت موتاً طبيعياً في سن الخمسين أو أن «روميو» عندما تزوجها لم يجدها عذراء ... ما قيمة كل هذا بالنسبة إلى «الحقيقة الفنية»؟!

كذلك ما قيمة اكتشافات المطران بارنز بالنسبة إلى «الحقيقة الدينية»؟

إذا كان هذا المطران رجل دين حقاً، لفهم ذلك ولكنه فيما يبدو لم يخلق للدين ولكن لمهنة أخرى ... وإنني أرشحه لمهنة «الصحافة» فإنه ولا شك قد خلّق لها دون أن يشعر! ولا أرى أسخف من القول إن مبادئ الاشتراكية والشيوعية هي المسئولة عن هذه النزعات، وإنها تحاول تحطيم كل شيء حتى الأديان ... ذلك أن الأديان ولا سيما الإسلام والمسيحية، ما نهضت إلا على أسس من الاشتراكية ... وما من شيء حطّم جوهر الأديان فعلاً غير الرأسمالية المتطرفة، ومع ذلك فهي التي تزعم أنها تحتضن الأديان وتحتكر حمايتها بأساليبها البارة في الاحتكار لتستند إليها بعدئذٍ وتجعلها أداة استغلال.

(أخبار اليوم ٢٥/١٠/١٩٤٧م)

(٢) الأستاذ المشرف على «الرسالة» يقول: إنها حق ... وألقوا بي في النار

عندما عرض عليّ صاحب رسالة «الفن القصصي في القرآن» قضيته التي سماها «قضية النكسة الجامعية» عجبت لأمر واحد، هو أن عالمين جليلين من علماء الدين؛ الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ شلتوت، أفتيا له بالأجر، وأن أساتذة الجامعة حكموا عليه بالكفر! ولقد توجّه إليّ بقوله: «فما رأي الأستاذ الحكيم فيما بين أولئك وهؤلاء؟... أليس يرى معي أن ذلك إيذان بالتحرّر من ربقة الجمود في الأزهر، وأنه دليل الرجعية في كلية الآداب؟»

ولكنني تلقيت بعد ذلك من العالمين الفاضلين أنهما لم يطلعا على نص رسالته الجامعية، وإنما أدليا بفتوى عامة في سؤال عام، ولقد أثار هذا الموضوع عواصف من كل جانب، ولقد أمطرني البريد رسائل من كل إنسان ... وما من واحد قرأ حرفاً من الرسالة الجامعية ... حتى ولا أنا ... بالطبع! ... ولكن الأصوات ... ترتفع من حولي تصطبخ وتصيح ... بعضها يطالب بحرق الرسالة التي لم تُقرأ ... والبعض يطالب بتجميد هذا البحث الذي لم يُقرأ أيضاً ...

وأنا في وسط الطوفان ... لا أدري أين الحقيقة؟ وأجد من يعذني مسئلاً عن الحكم في هذا الأمر ... وأنا لا أضع يدي على وثائق ... ولا أملك من الوقائع ما يجيز لي التسرع في إصدار الأحكام.

لهذا رأيت خير الأمور أن أستوضح أصحاب الشأن عن جلية الأمر ... ولأرجع لحظة إلى سابق عهدي القضائي ... فالموضوع الذي نحن بصده أخطر من أن يمر بلا تحقيق، فهو موضوع يتعلق بحياتنا الفكرية بل أكثر من ذلك وأعرق، إنه يتعلق بالصلة التي يجب أن تقوم بين حياتنا الفكرية المثمرة المتجددة وحياتنا الروحية الآمنة المستقرة! تذكرت أن رسالة جامعية توضع لنيل الدكتوراه، لا بد لها، طبقاً للتقاليد الجامعية، من أن تُعدّ تحت إشراف أستاذ جامعي ... فكيف ترك الأستاذ المشرف هذه الرسالة تُعدّ، إذا وجد في موضوعها ما يمس جوهر الدين؟!

إن المسئول الحقيقي — إذن — هو الأستاذ المشرف ... بل هو على الأقل الشاهد الأول الذي يجب أن يتكلم.

وتحرّيت عنه فليل لي: إنه الأستاذ أمين الخولي، الأستاذ بكلية الآداب ... فطلبته بالتليفون وسألته عما يعرف في الموضوع، فأرسل إليّ الخطاب الآتي نصه:

إلى الأديب الجليل

تحية وسلاماً، سألتني عن جلية الأمر في رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» فيها أنا ذا أدع الوقائع تتحدث:

منذ حوالي عشرين عاماً وأنا أدرس القرآن في كلية الآداب من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وقد اطمأننت إلى أن هذا الفهم الأدبي له يجب أن يتقدّم على كل رغبة في استفادة عقائد منه، أو أخلاق أو أحكام قانونية. فاتخذت لهذا الدرس منهجاً أدبياً خالصاً أذعته، ومضيت أضعه بين يدي طلبة الجامعة، وأفرغ من

نقدمهم له وتمثلهم إياه، ثم أتقدم لدرس موضوع من القرآن تطبيقاً عليه. أدهم بعده؛ ليتابع الدرس من له رغبة خاصة في درس هذا الكتاب العظيم. وقد جعل غير واحد من الطلاب دراسته العليا في موضوعات قرآنية: فكتب واحد رسالته للمجستير في «نشأة التفسير واتجاه تطوره» وآخر في «وصف القرآن ليوم الحساب» وثالث في «إعجاز القرآن» كما كتب محمد خلف الله أفندي رسالته للمجستير أيضاً في «جدل القرآن» واختار رسالته للدكتوراه في «قصص القرآن».

واسمح لي هنا باستطراد يسير هو أننا حاولنا رد درس الجامعة للبلاغة إلى الميدان الأدبي، وإبعاده عن الفلسفة وما أصاب البلاغة من جمودها وجفافها. فغيرنا من هذا الدرس ما غيرنا، ودعونا البلاغة «فن القول» لنذكر دائماً بأن الأدب قول فني لا يخرج منهج درسه عن الأفق الوجداني. فكان إثارتنا لهذا سبب تسمية رسالة اليوم «الفن القصصي في القرآن الكريم».

تقدم خلف الله لدرس «قصص القرآن» على المنهج الأدبي الذي لا يمكن أن تُعنى كلية الآداب بغيره. والقصص في هذا المنهج لون من ألوان البيان، وأسلوب من أساليب الأداء قد مضى فيه كتاب العربية الأعظم، ومعجزتها القولية على خطة له، هي التي حاول خلف الله تعرّفها في رسالته تفصيلاً ... فعرض أول ما عرض لما بين التاريخ والقصص من صلة، وما جرى عليه القرآن في هذا، واطمأن أخيراً إلى أنه ليس قصصاً لتعليم التاريخ، ولا سرد وقائعه مرتبة مستوفاة لتعرف منها الحقائق التاريخية، ولذلك لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآني قد وقعت، بل منها ما هو تصوير وتمثيل للمعاني، واطمأن لهذه النتيجة بالاعتماد على مقررات دينية لا أثقل عليك ببيانها، فهي تتصل بالمحكم والمتشابه وما إلى ذلك. وبحسبي أن أقرر لك أنها مقررات فرغ الأستاذ الإمام منذ أكثر من أربعين عاماً من تقرير ما هو أوسع منها وأبعد مدى؛ إذ انتهى من أن القصص القرآني فيه ما هو مثل لا قصة واقعة، ومن أن للمؤمن حق تأويل هذا القصص على أساس أن القرآن يُعبّر عن المعاني ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار، كما فرغ من أن وجود شيء في قص القرآن لا يقتضي صحته؛ لأنه يحكي من حال الأقدمين الصحيح والفساد، والصادق والكاذب ولأنه يجري تعبيراته على معروفهم ومنظورهم ولو كان خرافياً. كوصف الشيطان في قوله تعالى: ﴿طُلُعَهَا

كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٠٠﴾ ومس الشيطان في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ فليس في هذا وصف لصحيح من أمر الشيطان أو مسه بل أَوَّلَ الأستاذ الإمام الملائكة بالأرواح والقوى، والشياطين وإبليس بدواعي الشر، وعرض في بيان طويل لتأويل قصة آدم كلها في سورة «البقرة» ثم أثر التأويل على التسليم بحقيقة هذه الأشياء والأحداث، مقررًا أن المؤول أعلى كعبًا في الإيمان ممن يُسَلِّم؛ لأنه أكثر اطمئنانًا، وأقلُّ تعرُّضًا للشكوك.

تلك هي أم المسائل التي أنكرها من قرءوا الرسالة في الجامعة ولم يجتمعوا لمناقشة في ذاك كما يقضي نظام تأليف اللجان لتقدير الرسائل، ثم ما لبثوا أن اشتطوا في العناد فانتقلوا من طلبهم «تعديل بعض فصول الرسالة مع تقديرهم لجوانبها السليمة» إلى طلب «تطبيق أحكام الردة» على صاحبها! وتسرب الأمر إلى الخارج — بيد من لا أعرف — فتلقف ناس أخبارًا طائفة، وحكموا على ما لم يروا، ولم يقرءوا، بل أخفوا ما عرِفَ ونُشِرَ، فكتب من سموا أنفسهم جبهة العلماء، أن خبرًا نُشِرَ في عددي ٧٤١، ٧٤٢ من الرسالة عن بحث «خلف الله» ثم لم يكذب، فأصبح الأمر جد خطير، وعدوه وباء أشنع من وباء الكوليرا ... من أن عدد الرسالة ٧٤٣ يحمل مقالًا طويلًا في التكذيب، وبيان استحالة مخالفة البحث للدين.

وتوالى مثل هذا الاتهام على غير أساس، وخلف الله يكذب، ويبين، ويتحدى فيضيع صوته في ضجيج عامٍّ أهوج، وردد من ذلك المضحك المبكي، فلعل الأديب الفاضل قرأ ما كتبتَه هذا الأسبوع مجلة أدبية تلوم الجامعة على أن قبلت البحث في القرآن تحت عنوان الفن ... ولعله قرأ ما أذاعه مُفَتٍ قديم من أن صاحب البحث قال إن القرآن فن وصانعه فنّان، فهو كافر ولا شك عند مسلم بكفره! فما الفن يا ترى عند هؤلاء؟
أيها الأديب الجليل ...

إن المحنة كما ترى عقلية، وهذا أهون جوانبها ... ثم هي خلقية واجتماعية: خلقية لأسباب أيسرها أن الذين قرءوا الرسالة تقوّلوا عليها بما يستحيل أن يكون فيها. واجتماعية تدفع مصر في سلّم الرقي من أعلى إلى أسفل: فجاعتها ترفض اليوم ما كان يُقرَّر بين جدران الأزهر وينشر منذ اثنين وأربعين عامًا، وتخضع البحث للأوهام لا للإسلام ... و... و... و...

وأزهرها، يسمع ويرى رجلاً يعلن «أن ربه الله، ورسوله محمد ودينه الإسلام، وكتابه القرآن، وأنه إنما يفهم في القرآن السماوي فهمًا ما، بل يفهم في متشابهه فهمًا ما» فلا يقال له أخطأت أو أسرفت أو ... أو ... بل يُقال له — قبل أي تحرٍّ، أو تَنَبُّت — كفرت، ولماذا؟ لأنك جعلت القرآن فنًّا!

تلك إجابتي عمَّا سألت، فالأمر إنكار للحق الطبيعي للحق في أن يفكر ويقول، وإنه لَحَقُّ عرفنا الإسلام يقرره ويحميه، فلو لم يَبْقَ في مصر والشرق أحد يقول إنه حق، لقلتُ وَحْدِي وأنا أَقْدَفُ في النار: إنه حق حق، لأبرأ أمام ضميري، ولا أشارك في وصم الإسلام اليوم هذه الوصمة.

والله يحمي الحق وهو خير الحاكمين.

أمين الخولي

شهادة الأستاذ الخولي، خطيرة كما يرى الرأي العام، وإني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها: تلك هي قوله: إن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عامًا! إذا كان هذا القول صحيحًا، كما يؤكد الأستاذ الخولي، فلنا أن نطلب تعليلًا لما صرنا إليه. وعلى المسؤولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف.

فإنه لا يرضيهم أن نرجع اليوم — في عهدهم — القهقري ... بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام!

أما رجال الجامعة فقد اتهمهم زميلهم الأستاذ الخولي في عقليتهم وخُلُقهم، تهمة لا يدفعها عنهم غير دليلهم ... وهي إن صَحَّتْ لكانت قديرة على هدم التعليم الجامعي من أساسه واقتلاع أهدافه من جذورها!

اللهم لا تخيب أملنا كله فيما حسبناه نهضتنا!

وبعد، فعلى الرغم من ذلك ... لا أحب أن أبادر أو يبادر معي الرأي العام بالحكم قبل أن يلم بأطراف الموضوع ... ويسمع على الأقل قول مَنْ تناولهم الأستاذ الخولي بالاتهام!

(أخبار اليوم ١١/١/١٩٤٧م)

(٣) أطالب رئيس الحكومة النقراشي باشا بالاستقالة

طلبت إلى الرأي العام في الأسبوع الماضي أن يترثَّ معي، ولا يتسرع في إصدار حكم، قبل أن يسمع على الأقل كلام مَنْ تناولهم الأستاذ أمين الخولي بالاتهام، عندما أعلن في ختام

بيانه وهو أستاذ الأدب الإسلامي في الجامعة: «أن المحنة عقلية، وهذا أهون جوانبها ... ثم هي خُلُقِيَّة واجتماعية، خُلُقِيَّة لأسباب أيسرها أن الذين قرءوا في «الكلية» الرسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» تَقَوَّلُوا عليها بما يستحيل أن يكون فيها، واجتماعية تدفع مصر في سُلَّم الرُّقْي من أعلى إلى أسفل، فجامعتها ترفض اليوم ما كان يُقَرَّر بين جدران الأزهر ويُنَشَر منذ اثنين وأربعين عامًا ... وتُخَضع البحث للأوهام لا للإسلام ... و...»

هذا الاتهام الصريح لجامعتنا من أستاذ بها وعضو لجنة فحص الرسالة فيها ... كان لا بُدَّ أن يعقبه بيان من المسؤولين في هذه الجامعة ... وهذا ما كنت أنتظره ومنتظره معي الرأي العام الذي يتتبع باهتمام هذا الموضوع الخطير ... ولكن الذي حدث هو أن الأستاذ أحمد الشايب أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة وأستاذ الأدب بالجامعة، اتَّصل بي وأخبرني أنه يُعدُّ بيانًا يوضح به حقيقة الأمر ... غير أنه عاد في اليوم التالي واتصل بي أيضًا؛ ليخبرني أسفًا أنه مُنِعَ عن الكلام منعًا باتًا، وأنه مرغم إرغامًا على الاكتفاء بتقديم هذا الخطاب الآتي نصه:

سيدي الأستاذ الحكيم

بعد التحية، قد كنتُ على وعد أن أكتب إليك بيانًا لحقيقة الأمر في موضوع «الفن القصصي في القرآن الكريم» ولرد هذه التُّهم التي وُجِّهَتْ إليَّ، ولكنِّي مُنِعْتُ من الجهات الرسمية من الكتابة في هذه المسألة، وأجِبُّ أن أقول لك إنني لم أتهم أحدًا بالارتداد عن دين الإسلام ولا أفْتِيتُ بذلك، وكل ما في الأمر أنني عرضتُ المآخذ التي تثير الظن في هذه النقطة على الأستاذ المشرف، وتركتُ له الحكم والتقدير. وعلى كل حال فإن هذه المسألة كلها من حق الجامعة تقضي فيها بما ترى وفقًا لتقاليدها، وما كنا نحب أبدًا أن تنزل إلى ميدان الصحافة فتثير هذا الجدل، وتشوش الأذهان، وسيعلم الناس حقيقة الأمر ومصيره عمَّا قريب.

أحمد الشايب

وهذا كل ما انتهى إليه الموضوع!

أستاذ يتَّهم الجامعة المصرية بأنها تخنق الفكر، وتدفع مصر في سُلَّم الرُّقْي من أعلى إلى أسفل فتلوذ الجامعة بالصمت، ويقوم أستاذ فيها يريد توضيح الحقيقة فتضع الجهات

الرسمية كفها على فمه! ولقد علمت أن هذه الجهات الرسمية هي السلطات الخارجة عن «الجامعة»!

وبالأمس رأينا موظفًا كبيرًا يتهم وزارة المالية في نزاهتها وكفائتها، فتناولت الجهات الرسمية تقريره هو الآخر ولَفَّقَتْه بحرص واحتياط في أكفان الصمت.

أترانا أمام أسلوب واحد في الحكم اليوم؟ ... كل إنسان يصفع الجهات الرسمية على خدها الأيمن تدير له الخدَّ الأيسر صامتة، على شرط ألا يرغمها على الكلام، أو يضطرها إلى إجراء تحقيق، أو يحملها على كشف حقيقة أمراضها في وضح النهار؟!

مهما يكن من أمر هذا الأسلوب في السياسة والإدارة فإن على الجهات الرسمية أن تفتح فمها بإيضاح لحقيقة هذا الحدث ... والموضوع الآن لم يعد مخفيًا عن الناس، فالصحف تخوض في الأمر ... والرأي العام موزَّع بين فجيعتين: فجיעة في الجامعة المصرية التي كان يعدُّها روح النهضة الفكرية في الشرق ... وفجيعة في النهضة الدينية التي كان يحسب «الأستاذ الإمام» قد بعثها نهائيًّا، وأقام منارتها راسخة على صخرة الإسلام.

وقع هذا الحدث، وتبعه ذلك الاتهام، فاطلع الناس على هذه الكارثة في حياتنا العقلية والروحية: فجامعتنا، لو صحت التهمة ليست أرقى من كُتَّاب قرية! ومنارة نهضتنا الدينية قد سقطت منطفئة في بحار الظلمات، بعد أربعين سنة من حياة «الإمام»!

أمر خطير ... لست أدري هل تشعر بخطورته «الجهات الرسمية» أو أنها ستعجب لوصفنا إياه بالخطورة، وستبتسم ماضية في أسلوبها، ناعمة بشعارها «الصمت من ذهب» مُصدِّقة مؤمنة بهذه الكلمة في كل الأحوال، مكثفية بالإغداق من هذا «الذهب» بغير حساب تملأ به الجيوب والعقول والنفوس والآمال؟!

وأظن من الضروري أن نُذكِّرها بجهات رسمية أخرى وُجِدَتْ في مصر منذ نيف وعشرين عامًا كان لها في مثل هذا الموقف تصرُّف ... أخشى أن تصفه «جهاتنا» اليوم بالجنون أو الحمق ... فلقد ترك الحكم وزراء من بينهم عبد العزيز فهمي باشا احتجاجًا على خنق حرية البحث العلمي بسبب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، كما هدَّد عدلي يَكُنْ وكان رئيسًا للحكومة بتقديم استقالته حمايةً لحرية البحوث الجامعية، بسبب كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين.

أكان هؤلاء الرجال هازلين يوم وقفوا هذا الموقف ... أم كانوا يعلمون أنهم يضعون بذلك أول حجر في النهضة الفكرية لهذا الشرق؟!

ولنا اليوم أن نتساءل: أين ذهبت جهود أولئك الأبطال جميعاً؟ وفيما كانت تضحياتهم في سبيل البحث العلمي؟! هل كان يخطر في بال أحد أن الجامعة التي بدأت تلك البداية، تنتهي إلى هذه النهاية؟!

نحن الآن لا ندري على التحقيق ماذا جرى لهذه الرسالة الجامعية «الفن القصصي في القرآن الكريم»؟

الجامعة لا تريد أن تصدر بياناً في الأمر ... لأن الجهات الرسمية تضع على فمها الكمامة المشهورة.

هل رفضت الجامعة هذه «الرسالة»؟ هل هي تراوغ وتُماطل إلى أن تهدأ العاصفة، فتستبعتها في صمت وسكون؟ هل هي حائرة مُحرجة لا تدري ما تصنع في ورطتها، ولا تهتدي إلى حقيقة مهمتها؟!

كان إذن على وزير المعارف، وهو الرئيس الأعلى للجامعة أن يُوَجِّه جامعته إلى واجبها ... وأن يبيح لها التوجُّه إلى الرأي العام ببيان يُدخل على النفوس الاطمئنان.

ولكن وزير المعارف هو أيضاً جزء من هذه «الجهات الرسمية» التي تتحلّى بذهب «الصمت»!

مِمَّنْ إذن نطلب أيضاً؟!

لو لم يكن وزير المعارف رجلاً جامعياً في سالف الأيام لكان له عذر، ولكنه كان من رجال الجامعة الأحرار بل كان فيما أعرف رجلاً مشبعاً بالنزعات المثالية ... ولقد كنا من أربعة عشر عاماً صديقين، يوم كان هو أستاذاً بكلية الحقوق، وكنت أنا مديراً لإدارة التحقيقات بالمعارف، وكنا نتلاقى في الأسبوع مرّات، ولم يكن له همٌّ إلا التفكير في تنشئة جيل من الطلبة على البطولة في الأخلاق والفكر والحرية.

وقد عمل على إنشاء جمعية من طلابه تحقق هذه الأغراض اهتمتها «الجهات الرسمية» في ذلك العهد بخدمة بعض الأحزاب، وهي تهمة أشهد أنها إفك وزور، وقد طوحت به تلك التهمة بعيداً عن الجامعة.

ودارت الأيام دورتها، ويد الزمن تنقل صديقنا من مقعد إلى مقعد حتى ألقت به آخر الأمر فوق كرسيّ الوزارة، ولم نجتمع بعد تلك الأعوام. ولكنني ما نسيْتُ قطُّ صورة ذلك الجامعي المثالي الذي كان يُلهب طلابه حماسة في ذلك الحين.

أين ذهبت هذه المُثل العليا اليوم؟

وأين تذهب كثير من المبادئ المثالية التي كان ينادي بها كثير من وزرائنا؟

لا أحد يدري؟!

ربما كان هو ذلك «الكروسي»! لا بُدَّ أنه يحمل نوعًا من الوباء، خفي حتى الآن عن الدواء، يجعل «المثل العليا» تنساب من الجالس عليه، وتخرج منه ساقطة سائلة تحت أقدامه!

وبعد ... فلم نصل إلى شيء بعدُ ... رسالة ذلك الطالب الذي سأل النجدة لم تزل معلّقة ... في يد مَنْ؟ يد القدر أو يد التأخر؟ لا أحد يدري!
واتهام ذلك الأستاذ للجامعة بأنها سارت أربعين عامًا إلى الوراء ... لم يزل هو الآخر مكتومًا ... بيد مَنْ؟ يد الحكومة أو يد الجامعة؟ ... لا أحد يدري!

كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أرجو رئيس هذه الحكومة أن يتكلم أو يأذن بالكلام وألا يستصغر الأمر وأن يعلم أنه ليس هو الذي يخيف الإنجليز بصوته في مجلس الأمن، وبصمته في مجلس الوزراء، ولكن الذي يخيف الإنجليز هو هذه النهضة الفكرية التي اعتقدوا أنها تضيء من الجامعة، وهذه النهضة الروحية التي اعتقدوا أنها سرّت في الشرق من مصباح الأستاذ الإمام! التقدم الفكري والروحي في مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية ... وإذا جلّت جيوش الاحتلال عن أرضنا ... فلأنها لا تستطيع البقاء طويلاً أمام أشعة من الفكر والعرفان تعمي أبصارها.

وإذا حسب المستعمرون حساب مصر؛ فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشعّتها في العالم العربي!
فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد، أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما؛ إما أن تدرأ في الحال الخطر المحيق بهذه المنارة «الفكرية والروحية» ... وإما أن تستقيل!

(أخبار اليوم ٨/١١/١٩٤٧م)

فن ... «الزحلقة»

وليس المقصود هنا فن «الزحلقة» فوق الجليد في المشاتي الجبلية، بل فن «زحلقة» المسئولية والاختصاص في أداتنا الحكومية، وهو في الحق فنٌ قد اكتسبناه بكثرة الممارسة، وحذقناه بطول المران ... ولعل من سبق له اشتغال بالقضاء. خصوصاً في الأرياف قد مرّت به — على الأقل مرة — حادثة «الجثة التائهة»، جثة القتل الملقاة في النهر، تستكشف عند المركز، فيتبرم رجال الحفظ بها وبعواقب انتشارها وما يؤدي إليه أمرها من تحقيق وتفتيش وتشريح، وكُدّ وتعب وجري وراء الفاعل وتحملُ لنتائج وتعرّض لتبغات. فما لهم ووجع الدماغ ... وفي الإمكان التعامي عن الجثة بلباقة، أو تخليصها من أعشاب الشاطئ برشاقة، ودفعها إلى التيار، هدية كريمة إلى مركز آخر ... ويحملها التيار إلى المركز الآخر، فيصنع بها ما صنع الأول، متحاشياً لمَسّها، متهرّباً من استقبالها، متبرّعاً بها للمركز التالي ... وتسبح على متن التيار إلى المركز التالي، فيتنكر لها هو أيضاً ويتأفف ويتضجر ولا يقر له حال ولا يهدأ له بال حتى «يزحلقتها» إلى من بعده. وهكذا دواليك ... إلى أن يشاء الله، ويرسي هذه الجثة على بر السلامة. وبر السلامة هنا هو الجهة التي لا تستطيع لهذه الجثة «زحلقة» ولا منها هروباً ولا فكاكاً ولا خلاصاً ولا فراراً. يلبسها «الاختصاص» كأنه «خازوق» تقبله مُرغمة مُدعنة وأمرها إلى الله!

أما الوقت الذي ذهب هباء في هذه التصرفات، وأثر الجريمة الذي ضاع، والمصلحة العامة التي فاتت بسبب هذه الإجراءات ... فمن يدفع ثمنها، وعلى من يقع وزرها وقد طُمِسَتْ معالم المسئولية بين هذه المراكز المختلفة؟! هنا براعة فن «الزحلقة»!

وليس هذا الفن مقصوراً على الريف دون المدن، ولا على زمن دون زمن، ولا على مصلحة دون مصلحة، فالتفوق فيه بحمد الله مشاع بين الجميع ... وها هي ذي رسالة حديثة من قارئ فيها بعض الدلالة:

بعد التحية. ... أشرف بالإحاطة بأني مرضت فاضطرت إلى شراء قطن طبي من صيدلية مشهورة بالقاهرة، ولما قدّم إليّ الصيدليّ القطن المطلوب لاحظتُ أنه غير مصري الصناعة، بل فلسطيني صهيوني مُتَجَلِّز. فرددتُ إليه لفة القطن راجباً إليه استبدالها بقطن شركة مصر للغزل؛ لأنه النوع المصري الوحيد ويجب أن نفضله، ولكن الصيدليّ اعتذر بعدم وجود الصنف المصري، ولما كان الوقت ليلاً والضرورة مُلحّة أخذتُ ذلك النوع وانصرفتُ به ... على أنني ما كدتُ أفتح اللَّفّة حتى لاحظتُ بها قطعة كبيرة من القطن محتوية على مواد غريبة، فأخذتُني العزة القومية، والرغبة في المحافظة على سلامة المجتمع ووقايته، فبادرتُ إلى إرسال تلك القطعة ذات المواد الغريبة إلى معامِل الصحة.

فجاءني الرد الآتي نصه:

حضرة المحترم منصور أفندي علي حسن

نعيد لحضرتكم رفق هذا القطن الطبي الذي تَلَقَّته المعامل، طَرَدَ بريد رقم ١٢٢ في ١٩٤٦/١١/١م، والمطلوب فحصه للمواد الغريبة؛ وذلك لعدم اختصاص معامِل الوزارة للفحص المطلوب.

واقبلوا تحياتنا

١٩٤٦/١١/٢٠م

مدير عام مصلحة المعامل
(توقيع باللغة الإنجليزية)

ولم أستسغ خطاب المعامل فأرسلتُ خطاباً شخصياً إلى معالي وزير الصحة السابق ... فأجاب عليه سعادة وكيل الوزارة بالآتي نصه:

حضرة المحترم منصور أفندي علي حسن

بالإحالة إلى كتاب حضرتكم المؤرخ ١٩٤٦/١١/٣٠م الخاص بطلب فحص عينة قطن للمواد الغريبة، بمعامل الوزارة، نحيط علم حضرتكم بأن هذا الفحص لا يقع في دائرة اختصاص المعامل المذكورة، ولهذه المناسبة نشير على حضرتكم بإرسال هذه العينة إلى مجلس مباحث القطن بالأورمان - جيزة واقبلوا تحياتنا.

١٩٤٦/١٢/١٥م

وكيل الوزارة للشئون الطبية
(إمضاء)

ونفذت إشارة سعادة وكيل وزارة الصحة، وأرسلت قطعة القطن الطبي إلى مجلس مباحث القطن بالأورمان جيزة، وهو تابع لوزارة الزراعة، فجاءني الرد الآتي نصه:

حضرة المحترم منصور أفندي علي حسن

رداً على خطاب حضرتكم المؤرخ ١٩٤٦/١٢/٢٢م الخاص بطلب فحص عينة القطن الطبي المرسل، نفيديكم أن المختص بهذا الفحص مصلحة الكيمياء التابعة لوزارة التجارة والصناعة. وتفضلوا ...

١٩٤٦/١٢/٢٥م

مدير قسم تربية النباتات
(إمضاء)

وهنا وقف بالطبع ذلك المتحمس «للعزة القومية» عن المضي في طلبه، وفترت فيه «الرغبة في المحافظة على سلامة المجتمع ووقايته»، فقد أيقن أنه سيُقذَف به مع لفة قطنه من وزارة إلى وزارة، وأنه سيمر حتماً على مختلف المصالح والوزارات إلى أن يبلى القطن أو يذهب أثر المواد الغريبة، أو ينفد صبره، أو يضيق صدره، أو تطير بقايا المشاعر الطبية التي دفعته إلى الاهتمام بأمر يكلفه الوقت والمال وشغل البال، بإرسال طرود البريد وتحرير الخطابات، والأخذ والرد في سبيل غرض لا هم له فيه إلا الصالح العام!

قلت ذات يوم

والفضل في ذلك كله لفن «الزحلقة».

(أخبار اليوم ١١/١/١٩٤٧م)

فتياتنا في الحرب

تخيَّلت البارحة أن الحرب أُعلِنَت. فنهض في الحال كل فرد بواجبه، فتطوع الشُّبان في الجيش المصري المظفَّر، ووضعت المواهب في خدمة الوطن العزيز، وجرت أنا قليلاً في نوع الخدمات التي أستطيع أن أؤديها لبلادي واحمَرَّ وجهي خجلاً أن يكون نصيبي آخر الأمر الترحيل إلى قريتي أو الفرار إلى عزيتي. كلاً! هذا لن يكون. إن مثلي ممن أعطى فكره وحياته لبلده في أيام السَّلم لا يمكن أن يضمن بها في أيام الحرب. لا بدُّ من ذهابي إلى خط النار. نعم سأذهب إلى خط النار حاملاً ... حاملاً ماذا؟ أنا الذي لم يحمل قطُّ مُدِيَّة يبري بها قلمه الرصاص. لكن مهلاً، هل الحرب كلها بنادق ومدافع ورصاص؟ إنني أستطيع أن أدافع عن وطني بقلم الرصاص. فلأذهب به إلى خطوط النار بصفتي مراسلاً حربياً مثلاً أكتب التقارير وأصف المواقع كما كان يفعل «كبلنج» في جيش الهند.

وذهبت بقلم ووصفت وكتبت وحرَّرت واختزنت في الذاكرة من المعلومات والموادَّ ما سوف يملأ مجلِّدات تُدرُّ عليَّ آلاف الجنيهاً أولاً، وتضمن لي الخلود ثانياً، ولكن بينما أنا أراقب موقعة من المواقع وقد دفعني حب الاستطلاع إلى نسيان الحيط والحذر فابتعدت عن مواطن الأمن، واقتربت من مواضع الخطر، إذا رصاصة قد انطلقت تصفر في الفضاء قصفت قلبي الرصاص أولاً، ثم أرادت أن تقصف رقبتي ثانياً، ولم أدِر ما حدث فقد رحَّت في غيبوبة لم أفق منها إلا في سرير مستشفى القاهرة.

قرع سمعي ضجيج مشاجرة قرب سريرى، وصوت طبيب يقول لمرضته:

— حرك عليَّ يا زوزو هانم!

ولكن الست المريضة وهي فتاة رشيقة مهندمة أنيقة، لم تنسَ أن تصبغ شفيتها بالأحمر، ولكنها نسيَت أن حولها جرحى على شفا الموت الأحمر، أجابت في خشونة:

- أيوه إنت لازم تعرف أنا مين، الباشا ... بابا.
- مفهوم. مفهوم لكن على كل حال اسمحي لي أنبهك للمواعيد، عملك يبتدئ الساعة سبعة وحضرتك قمت من النوم الساعة عشرة.
- وماله أنا متعودة على كده. وأنا مش خدامة ... أنا. متطوعة.
- متطوعة علشان تؤدِّي الواجب مش علشان تدلعي. إنتم فاهمين المسألة دلح، وواخين الشغلة دي على أنها موضة، مش على أنها واجب، وكانت النتيجة أنكم سبتم العيَّانين المساكين ينفلقوا لغاية حضرتكم ما تصحوا على كيفكم.
- إيه الكلام الفارغ بتاعك ده يا دكتور. أنا واحدة من الطبقة الراقية، ما يصحش تقول لي كلام زي ده، أنا عمر ما حد تأمر عليّ، رايح إنت تتأمر عليّ ... بابا نفسه ما يقدرش يقول لي تلت التلاتة كام. وماما كمان. ومدحت خطيبي دكتور عظيم يلبسني بيده الجزمة، ويقدم لي احتراماته خمس مرات في اليوم. ومع ذلك فين هم العيَّانين الي انفلقوا لغاية ماصحينا؟
- آدي واحد منهم كان حقك تستلميه من الساعة سبعة صباحًا علشان تقدمي له الدوا خمس مرات في اليوم!
- وأشار الطبيب إلى سريري فالتفتت الفتاة نحوي وتنهّدت وقالت:
- حكم علينا الزمان.
- فانتفضت وقلتُ في نفسي:
- وأنا ما حكمش علي الزمان لما يسلموني لبنت متدلعة زي دي؟
- انصرف الدكتور. وبقيت الممرضة زوزو «هانم» تلاحظني كما طلب إليها الطبيب، ولكنها لم تنطق صبرًا على الوحدة دقيقة، فما كاد الدكتور يختفي حتى ذهبت إلى باب القاعة ونادت في «العنبر» المجاور:
- يا شوشو.
- فظهرت ممرضة «هانم» أخرى من طرازها وقالت:
- إيه يا زوزو؟
- تعالي يا أختي ندردش ألا روجي طلعت.
- حقًا يا أختي، قطعوا العيَّانين وقطعت أيامهم، وحياتك لو كنت أعرف الحكاية تزهق كده ما كنت تطوَّعت ولا هبَّبت.

- ولا أنا وحياتك.
- قال إيه نقعد طول النهار والليل نسقي أدوية ونشاهد أمراض ونماذج مجاريح.
- يا ترى ميمي فين؟
- مسكينة سلموها ضابط كبير جابوه النهارده مكسر جتّ وقاعدة تلاحظه بعيد عنك لما داخت.
- بعيد عني ازاي ما انتش شايفه أنا رُخَرَه في الغلب إيَّاه، الدكتور الثقيل سلمني بسلامته الجريح اللي قدامك ده ... لسه ما نطقش من الصبح ومش باين عليه حاينطق في يومه!
- وأشارت إلى جسمي الممدّد، فلم أطق صبراً وفتحتُ عيني ووجدتُ في نفسي القدرة على الكلام فصحت:
- أنطق أقول إيه؟ تبقى روحي بين يدي زوزو وشوشو وموشو ورايح أفلح. أنا توفيت وعليّ رحمة الله!
- فذُعرَت الفتاتان وصاحتا في وقت واحد:
- يا دهوتي!
- ثم تمالكتا وأقبلتا عليّ. وقالت زوزو المنوطة بي:
- فقت خلاص؟
- فنظرت إليها بعينين واسعتين:
- أنا عارف؟ بتسأليني أنا؟ إنت مش حضرتك ممرضة وتعرفني على الأقل إذا كنت أنا فُقت والّا لسه مغمى عليّ؟!
- فحدقت زميلتها في وجهي وقالت لها:
- كلام برده ياختي معقول هو يظهر عليه إنه فاق.
- فقلت لها:
- يظهر كده.
- فأسرعت زوزو إلى الدواء وأقبلتُ به نحوي قائلة:
- طبيب حيث كده بقى تفضل خد الدوا وبطلّ الدلع من فضلك.
- فنظرتُ إليها مليّاً:
- أنا اللي أبطلّ الدلع؟
- فهمست زميلتها في أذنها قائلة:

- مال العيان بتاعك ده من دون العيانين قايم يناكف كده على طول؟
فقلت لها:

- أنا عارفه إيه ده؟ علشان تصدقي قلة بختي يا شوشو.
- أنا كمان في مسألة العيانين ما عنديش حظ أبدًا يا زوزو.
فنظرتُ إليهما متنهَّدًا:

- كبدي على قلة بختك يا زوزو وسوء حظك يا شوشو!
فجعلتُ كل منهما تحدُّ إليَّ البصر دهشةً وغضبًا، وتحركتُ زوزو فجأةً ومدَّت يدها
إلى البطاقة المعلقة برأس سريري فانترعتها بشدَّة وأخذتُ تقرأ فيها البيانات الخاصة بي،
ومنها اسمي: وعندئذٍ لفظت صيحة خفيفة وألقتُ على وجهي نظرة طويلة، وهزَّت رأسها
لحظة وقالتُ لزميلتها:

- إنت عارفه ده مين؟! دا ...
ثم همست في أذنها بكلام لم أسمعهُ.
وإذا صاحبُها تلفظ عين الصيحة وتنفَّرس في وجهي مليًّا، ثم تقول هي الأخرى
هامسة:

- أيوه، هو بعينه ولسانه الطويل!
- تعالي بقى نجنَّه وننتقم منه. أهو وقع في إيدينا.
فسمعتُ العبارة الأخيرة وارتعدتُ صائحًا:
- لا اعملوا معروف أنا أفضل أني أقع في أيدي الأعداء.
فأجابت الفتاتان:
- أعداء. وانت لك أعداء غيرنا؟!

وهنا انقطع التخيل وارتفع الخيال، وثبَّت إلى رشدي وقد أدركتُ خطورة مركزي إذا وقعت
الحرب. فأنا وحدي من دون الناس أجمعين واقع في الأسر، واقع على كلِّ حال. فأمامي
عدو من الطراز العنيف، وورائي عدو من الجنس اللطيف، فإذا نجوت من قبضة أحدهما
لم أنجُ من قبضة الآخر، والعيان بالله.

(آخر ساعة ٢١ مايو ١٩٣٩م)

بيني وبين ... «خصومي الشرفاء العقولين»!

ما كادت تُنشر في هذا المكان قطعتي السابقة «فتياتنا في الحرب» حتى قامت «الحرب» فعلاً بيني و«بينهن» وترامت إلى أبراجي المقذوفات الآتية:

سيدي الأستاذ الحكيم

فتحتُ هذا المساء مجلة «آخر ساعة» وقد كنتُ طوال الصباح بالمصادفة أفكر في أمرك (لَمَّا قرأته لك من رأيي عن المرأة المصرية في إحدى المجلات) فلم يدهشني أن أجذك هنا أيضاً مرة أخرى. على أنني لستُ أكتمك أنني صُدمت هذه المرة صدمة شديدة. صُدمت للصورة التي رسمتها يدك لمرضاتنا من فتيات الطبقة الراقية إذا نشبت الحرب، إنها سخافة. اسمح لي أن أقول: إن ما صورته قلمك هراء، وإنك قد بالغت وأغرقت في المبالغة حتى وقعت في الابتذال. إن أحط فتاة في العالم يمكن أن تتصرف أثناء الحرب هذا التصرف الذي نسبته إلى الفتاة المصرية. لقد صدمتني سخريتك اللاذعة وجرحتني إهاناتك المؤلمة، من أين جاءت هذه الفكرة عنا؟ ألا تراك تحكم على المصرية بناء على القليلات اللاتي شاهدتهن كما تقول لا يعرفن شيئاً غير لعب «الكونكان» والقفز في «البلاجات» وقيادة السيارات. ثِقْ أن أغلب المصريات يعشن معتكفات في حياة مغلقة، فلم تتيسر لك فرصة معرفتهن وتقدير قيمة شخصياتهن.

ما رأيك في «ميرة محمد علي» ألم تحسن تنشئتها وإدارتها مصريات؟ إنهن لسن عديمات النفع كما تظن؛ أنت تحسن الكلام عن الأوروبيات، ثِقْ أننا نساويهن في التعليم والتهذيب، بل في كل شيء ما عدا الحرية. وهذا النقص في

الحرية أنتم سببه معشر الرجال. إن المرأة الأوروبية محترمة وهي حرة التصرف،
حرية التفكير حرة الحياة. أما نحن، فأقلُّ خطوة منا تُنتَقَد أشد النقد. نحن نعيش
في أقفاص. لِمَ هذه الحملات على المرأة المصرية، ووصفها بالسخف والسطحية،
وفقد العاطفة والقلب؟

نحن في حاجة إلى زيادة الحرية للسجينات الفاضلات، وللحد من الحرية
للطائشات المستهترات. إنني أعترف أننا في حاجة إلى حسن القيادة والتوجيه.
وأن أماننا أشياء كثيرة يجب أن نتعلمها. ما رأيك لو غيَّرتَ طريقتك، وقدتَ أنتَ
خطوات المرأة وساعدتها وشجعتهَا، بدل إساءتها، عندئذٍ نصبح مَدِينات لك، كما
نحن مَدِينات لقاسم أمين.
وبعد، أنفترق صديقين؟

مصرية

وصلني هذا الخطاب بلغة إنجليزية سليمة، وقد ذكرتِ صاحبة الخطاب في سطرين
السبب في ذلك قائلة: «ولا تظن أن كتابتي لك بالإنجليزية معناها أنني أجهل لغة بلادي.
إنما أردتُ أن أختار أقوى الأسلحة في محاربتك، والإنجليزية أطوع في يدي الآن من العربية
التي أرجو أن أتقنها يوماً لأكتب بها إليك.»

ثم وصلني في اليوم التالي الخطاب الآتي بلغة فرنسية جيِّدة دون أن تذكر صاحبتَه
السبب. ولكنه مفهوم طبعاً، فهي أيضاً قد اختارت نوع السلاح المناسب ... وما دامت الأولى
قد أثَّرت لغة «شامبرلين رئيس وزراء بريطانيا» فلا يدهشني أن تُؤثِّر الأخرى لغة «دلاديه
رئيس وزراء فرنسا» وهو تحالفٌ طبيعي، أخشى أن يؤدِّي في «حربنا» الصغيرة هذه إلى
نفس النتائج التي سيؤدِّي إليها في الحرب الأخرى الكبيرة ... وإليك ترجمة الخطاب
مستهلة بِرَقَّة الروح الفرنسي المعهودة:

عزيزي الأستاذ الحكيم

أنت قاس على المرأة المصرية، لماذا تلقي على عاتقنا خطأ أولئك اللاتي استثنى
سخطك؟ إذ لا شك أنك قابلت أولئك المصريات الطائشات ممن سحرنك بجمالهن
في بادئ الأمر، ثم وجدتَ بعد ذلك أنهن لا يتعالين إلى مثلك الأعلى. كم هي جميلة
وممتازة امرأة أحلامك! ممتازة وكاملة إلى درجة استحالة وجودها بالفعل.
تقول «أنا عدو المرأة» لا ينكر أحد إخلاصك، ولكنني أنا التي تحتقرها وتغمرها

بظلمك المستمر، أنا مصرية العصر الحديث، أقول: إنه لم يعرف أحد غيرك كيف يحب المرأة، لقد جعلتها فوق البشر إلى درجة أن أقل خطأ تكتشفه في حقيقتها يصدك! الرجال الآخرون يتسامحون في ضعفها، إنهم لا يطلبون غير جمالها، ولا يتألمون من سخفها وطيشها، أولئك لا يعرفون ما تستطيع أن تمنحه المرأة. إن تسامحهم وتغاضيبهم لأشد إيلامًا وإهانة من أقسى الانتقاد؛ ولذلك فإنني لا أثور لنفدك وسخريتك. إني أعطيك بعض الحق، ولكنني أتألم من هذا الحكم، ولست الوحيدة التي تتألم؛ إذ ترى كيف أن المصرية الحقيقية مجهولة. إنه لا يُسمَح لها أن تسفر عن أفكارها وعواطفها إلا للأقارب أو أصدقاء الأسرة القدماء. أنا شخصيًا لم أعرف في حياتي البالغة الآن ٢٣ عامًا إلا خمسة رجال، ثلاثة أقارب، منهم قريبٌ خطبني ثم هجرني من أجل راقصة، ثم عجوزان صديقان لوالدي. فإذا صح لي أن أحكم على الرجال بناء على هذه العينة لكوّنت عنهم فكرة أسوأ من فكرتك أنت عن النساء. نحن في سجن، ومهما مُنَحنا من أنواع التعليم والثقافة فإننا جاهلات أهم شيء في الحياة وهي الحياة نفسها. وكيف نعرفها ونحن لا نعرف كيف نخاطب رجلًا في مجتمع من المجتمعات الفاضلة؟! لقد كان من نتيجة فَقْدِ حُرِّيَّتنا أنني حضرتُ مجتمعًا صغيرًا محدودًا فقدمتُ فيه إلى أخوة وأبناء أعمام بعض صديقاتي، فلم يلبثوا أن وجدوني شبه بلهاء، نعم لقد أفزعني حضور الرجال. فكانوا إذا وجهوا إليّ كلامًا احمرّ وجهي خجلًا، واضطربت نبضات قلبي، وتمتمتُ وتهتفتُ بإجابات خاوية. تدهشني أنا شخصيًا وتزيد في خجلي. كيف أستطيع وأنا على هذه الحال أن أجد أحدًا يهتم بأمري، أو يأبه لشخصي؟ كم من فتاة غيري يحدث لها ذلك. فقد يجدن أنفسهن أحيانًا في مجتمعات بها أوروبيات يتألّقن كالنجوم بحديثهن الشائق وشخصياتهن البارزة، ويتركنا نحن المصريات الخاملات الخجلات في ظلام الإهمال المهين.

إن ارتياد المجتمعات، عَوْدُ الأوروبية معرفة الحياة وعَلْمُها فنَّ الحديث الذي يُظهر من المرأة كلّ جمالها الروحي. إن الرجل المصري أنانيّ، ضيقُ الذهن، وهو بحبسه المرأة المصرية في البيت كأنها خادمة، قد حرم هذه المسكينة أكبر فرصة لتكوين شخصيتها باتصالها بالرجال الأكثر منها ثقافة وتجربة وخبرة، وإذا تجرأت مصرية وزهبت بمفردها إلى أحد هذه المجتمعات، ففي اليوم التالي تراها مضغة في أفواه العجائز، وأصحاب الجرائد والمجلات.

نحن في بلد يتذوق فيه الناس الأقاويل والإشاعات تذوقهم «للملوخية». يلذ لي أن أبثك هذه الأشياء المؤلمة رغم أنك عدوُّنا، إنني لا أشعر بذلك؛ فأنا لا أكاد أتصوّرُك في شكل بشري. أنت بالنسبة لي روح، تفهم وتدرك كل ما أقول وما أحس، فأرجو ألا تغضب لمحدثتي إياك طويلاً، فلئن كان لك من الصبر ما يحملك على قراءة خطابي هذا إلى النهاية، فإني أكون عاجزة عن شكرك لما أعطيتني من فرصة الترفيه عن نفسي الحبيسة، بالإقضاء بكل هذا الكلام. وأخيراً أتسخر مني أيضاً بعد ذلك؟ افعل ما شئتَ لكن افهم جيداً أن المصرية لم ترفع حجابها بعدُ، إنه ما زال على وجهها كثيفاً ثقيلاً خانقاً، ولا بد أن تمضي سنوات عديدة قبل أن تُحرّر المصرية نهائياً من هذه الأغلال التي تحطم شخصيتها. أظن بعد هذه الاعترافات أن في مقدوري أن أكشف لك عن اسمي الحقيقي، أعطني أنت الاسم الذي تراه: تافهة، مغفلة، ثقيلة ... إلخ إلخ.

اخترت هذين الخطابين من بين عشرات كلها لا يخرج عن هذه اللهجة المؤدّبة اللطيفة، ولا عن هذه الأفكار المعقولة الشريفة، وهي كما ترى تتّجه إلى قضية قد تكون عادلة، أكتفي اليوم بعرضها. عسى أن يتألف من بين المصريين «وفد رسمي» ينتزع للمرأة المصرية «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» من براثن الرجال غير الكرام.

(آخر ساعة ١ يوليو ١٩٣٩م)

شعب يريد النصر

مَنْ يطالع كتاب «الحرب والسلام» لتولستوي يجد هذه السطور: إن المعركة لا يكسبها دائماً إلا ذلك الذي وطَّن النفس على كسبها ... لماذا خسرنا موقعة أُسترلتز «أمام نابليون»؟ لقد كان ما تكبدناه من خسائر معادلاً لما تَكَبَّدَه الفرنسيون! ولكن الذي حدث هو أننا كنا أسرع منهم اعتقاداً في الهزيمة! ... إن الانتصار لا يتوقف على القائد، ولا على رئيس هيئة أركان الحرب ... ولكنَّه يتقرر عندما يصيح أوَّل جندي «لقد خسرنا!» أو عندما يهتف: «لقد ظفرنا!»

ويمضي تولستوي بعد ذلك في تقليل ما حدث عام ١٨١٢م من ارتداد نابليون بجحافله عن مدينة موسكو ... لا عبقرية نابليون في رأيه، ولا ما كان يصاب به من زكام، ولا جليد روسيا الذي كان يُجمِّد أنوف جنده، فتتساقط من الوجوه كأنها حطام ... كان هو السبب في تقهقر الفرنسيين ... إنما السبب الحقيقي في نظره هو أن روسيا كانت تتشبث بحياتها في أرضها أكثر من تشبُّث فرنسا باحتلال أرض ليست لها ... لقد أراد الروس طرد هؤلاء المتطفلين على بلادهم ... وكانت إرادتهم هي الأقوى ... لأنها الأصدق، ولا شيء في الوجود يهزم إرادة صادقة!

النصر هو إذن لمن يريد النصر، ولا يريده حقاً من صميم نفسه إلا ذلك المعتدئ عليه في عقر داره.

إن الدول تنبت وتشب في أرضها على مدى الأحقاب، كما ينبت ويشب الدوح، وتثبت جذوعه، وتتغلغل جذوره ... فلا تخلعه العواصف ولا تقلعه الرياح ... إنها لا تُزَرَع لساعتها بالأيدي في أي أرض، كما يُزَرَع ضعيف الحشيش وأهون العشب، فبالأيدي يُخلَع كذلك، وفي الفضاء يُطَرَح!

هكذا يظن قصار النظر من ساسة الغرب أن في مقدورهم أن يغرسوا بأيديهم في
طرفه عين دولة في أرض الغير.

إن التاريخ غني بالعبر ... ولكنهم لا يبصرون.
ولكن الموعد قريب ... يوم تردُّهم طبيعة الأشياء إلى البصر، فيرون عندئذٍ كيف يتطاير
زرعهم هباءً، وكيف تذرّوه الرياح بددًا.

إننا سننتصر ... لأننا أردنا النصر ... كل فرد فينا أراد النصر ... لا جندِيُّ القتال
وحده ... بل كل إنسان نَبَت في هذه الأرض، وتغلّغَتْ فيها جذوره منذ القدم ... كل إنسان
عالم أو جاهل ... كل فرد صانع أو عامل ... إن الجميع يتحرّقون شوقًا إلى العمل من أجل
النصر، ويضطرمون غضبًا على كل مَنْ يصدّهم عن هذا السبيل.

لقد تلقيتُ أخيرًا صيحةً مجلجلة كقصف المدافع من رجال بعידين عن الحرب كرجال
التعليم الصناعي يقولون ثائرين: «لقد التمسنا من أولي الأمر أن يستغلّوا خبرتنا الفنية
والعلمية من أجل الإنتاج الحربي، ومن أجل جيشنا المظفّر ... لدينا مصانع كثيرة يمكنها
أن تعمل لا بحرارة الوقود بل بحرارة دمائنا التي تغلي في العروق! لا نريد أن تظل خبرتنا
معطّلة، وقوّتنا مهمّلة في هذا الوقت الذي ينال فيه الجندي شرف إهدار دمه في ساحة
البطولة والتضحية ... لا نريد أوسمة من الشكر والتقدير كتلك التي مَنَحنا إياها أولو
الأمر يوم عرضنا تطوعنا، إنما نريد أوسمة من التجنيد والتكليف بالعمل لخدمة الجيش
ليل نهار. إنه ليحز في نفوسنا أن الجيش البريطاني قد استغلّنا في الحربين العالميتين ...
واعتمر جهودنا في خدمة ما أسموه قضية الديمقراطية ... نريد نصيبنا من الكفاح قبل
أن نُعطى إجازات الصيف، حيث الدعة والراحة، في وقت نعتبر فيه الراحة جريمة في حق
الوطن الناهض والجيش المجاهد.»

بهذه اللهجة يتكلم الناس اليوم في هذا البلد ... ولئن كان هتاف أول جندي بالظفر
هو الذي يقرر في نظر تولستوي، مصير الموقعة ... فما بالك بهتاف كل فرد في الأمة طالبًا
نصيبًا في الجهاد من أجل نصر البلاد؟!

في يقيني أنا أمةٌ كُتِبَ لها الانتصار ... لأنها تريد خالصة صادقة أن تنتصر.

(أخبار اليوم ١٩٤٨/٦/٥م)

شعب الله بغير الله

لنرى حقائق الأشياء، يجب علينا أحياناً أن ننظر إليها من بعيد ... ابتعد عن الصورة قليلاً تجدها فوق الجدار مَجْلُوءَ المعنى واضحة الخطوط ... والبعد في المكان أو في الزمان سيان ... لهذا يحسن البحث في ملفات الأمس إذا عرضت مشكلة من مشكلات اليوم ... فلا شيء يلقي ضوءاً على الحاضر مثل الأشعة التي تأتيها من أغوار الماضي، إن ما يُكْتَب الآن عن الصهيونية كثير ... ولكنني عُنيْتُ بأن أرجع إلى ما كُتِب عنها منذ عشر سنوات لأرى وجهها في جو لم يتلبّد بعدُ بدخان المدافع.

في يوليو عام ١٩٣٨م ذهب إلى فلسطين صحفيان عالميان؛ أحدهما أمريكي والآخر فرنسي. طَفَقَا يجوبان في أنحائها، يبحثان ويتحريان، متنقلين من مستعمرة صهيونية إلى أخرى. يحادثان أهلها، ويدَوِّنان ما استرعى التفاتهما من ملاحظات دون أن يكون لهما من وراء ذلك مأرب غير طلب الحقيقة ذاتها، ونشرها فيما يراسلانه من صحف ... قال أحدهما فيما كتب: إن الصهيونيين ليقومون أمام العالم بتجربة مجنونة! وحسبُ الذهن الأوروبي أن يرى حياة هؤلاء الصهيونيين في فلسطين ليدرك هذه الحقيقة ... وماذا نقول في قوم، يعيشون حياة مشتركة في أدقّ تفاصيلها ... يعملون معاً، ويلهون معاً، ويأكلون معاً، وينشئون أطفالهم منذ نعومة أظفارهم بعيداً عن جَو الأسرة، حتى يقتلوا فيهم كل عواطف البنوة الطبيعية ... وإنهم ليحيون على هامش الأديان ومبادئ الأخلاق، كأنما يريدون عامدين أن يعارضوا «النوع البشري»! ولقد دفعنا هذا كله إلى أن نقف منهم موقف الحائر المتسائل: ما المقصود من هذا الأسلوب في الحياة، وإلى ماذا يؤدي؟ ... أمْقَض هو إلى تكوين روح «الجماعة» فيهم أم إلى عودة إلى روح «القطيع»؟! ولماذا كان هذا هو مثلهم الأعلى، فهل رأى أحد مثالية، هي أشد عداوة «للإنسان» من هذا الضرب من المثالية؟ وفي الحق إن شيوعيتهم ليست في جوهرها إلا شكلاً من أشكال التعصب الجنسي؛ هي

نوع من عبادة الذات «اليهودية»! ... إن كل مُستعمرة صهيونية ليست سوى فُرْن مرتفع الحرارة تُصهرُ فيه وتُصنع هذه «الذات» كأنها ماسة ... ولا بأس بعد ذلك من أن تطرح القيم الإنسانية التي كانت دائماً موضع التقديس هملاً في ذلك القرن كأنها وقود! لقد لخص «رينيه شوب» (وهو كاتب يهودي) الصهيونية في فلسطين بعبارة واحدة فيها كل الدلالة على حقيقة حالهم:

«إن شعب الله يعود إلى فلسطين بغير الله!»

كذب إذن من قال إنهم من أجل الدين أصروا على إنشاء الوطن القومي في فلسطين! ... ولقد وصف أحد الصحفيين منظر الصهيونيين، وهم في الطريق ذاهبون إلى العمل: لكأنني بهم ذاهبون إلى الحرب! ... فهم أيضاً تتسم وجوههم بسيما ذلك النوع من التحدي، الذي يبشر بقدوم عهد جديد لا أثر للرحمة فيه، ولا للذة الروحية، ولا للأحلام ولا حتى للماضي، وما قيمة الشرق إذن بغير الماضي؟ ... هذا الماضي الذي ليس هو ماضيه وحده ... بل ماضينا نحن الأوروبيين والأمريكيين ... ماضي البشرية كله ... ونحن إذ نطأ أرضه نشعر كأنما وطئنا الأرض التي عليها وُلدنا ... وسِرنا في خطى الأولين والآلهة الأقدمين! هناك حيث سار المصريون والحيثيون والفينيقيون ... أجيالاً من قبل! وإن التاريخ بوسائله الحديثة، كلما توغل هناك باكتشافاته ... أيد الأساطير وما نفاها ... وأكّدها وما بددها ... وها هي أعمال الحفر التي يقوم بها العلماء في الشرق الأوسط تعيد إلى الكتب القديمة هيبتها واعتبارها ... نافضة عنها تراب الشيخوخة ... مُتَوَجِّةً مفارقها بتاج الشباب الدائم ... لن يعرف إلى أين يذهب ذلك الذي لا يعرف من أين جاء! ... إن الماضي هو الذي يصنع المستقبل.

«إن الإنسان ليس أرقى من الحيوان إلا بعَراقة تقاليده وعمق ذكرياته» ... إن الصهيونيين إذن ما أرادوا قط أن ينشئوا في فلسطين وطناً تاريخياً ... وإنما أرادوا أن ينشئوا وطناً اقتصادياً ... إنهم يريدون أن يسيطروا صناعياً وتجارياً على تلك الحقول الخضراء الواسعة من حولهم التي يرهاها نفر سانج، في رأيهم ... إنهم جاءوا للحرب لا للسلام ... يُخَضِّعون لسلطانهم أقواماً مُسالِمين.

الصهيونية ليست أنشودة حالة لجنس مضطهد ... كما استطاعت بحذق أن تفهم أمريكا البلهاء ... ولكنها مشروع اقتصادي وسياسي سوف تندم على تأييده أمريكا في يوم من الأيام!

(أخبار اليوم ١٩٤٨/٧/٢م)

عيشوا في خطر

«إنني أُحيي تلك البوادر التي تنبئ عن قدوم عهد موسوم بالرجولة ... نُقِشَتْ فيه من جديد على جدران القلوب كلمة «البطولة».

صدقوني! ... إذا أردتم أن تحصدوا ما في وجودنا الخصب من ثمرات، وأن تفوزوا من الحياة بأشرف المتع، فإنني أكشف لكم النقاب عن السر: عيشوا في خطر! ابنوا مدنكم على حافة البراكين ... أرسلوا سفنكم إلى البحار المجهولة ... اشتبكوا في الحروب مع أندادكم، ومع أنفسكم، كونوا ناهبين وفاتحين. إذا لم تستطيعوا أن تكونوا مسيطرين ومالكين! عندئذٍ تشعرون أنه قد ولَّى عنكم ذلك الزمن الذي كنتم فيه تقنعون بالحياة في الغاب مختبئين، كالظباء النافرة الخائفة.»

تلك كلمات «نيتشه» لكأنِّي به يوجهها إلى شعبنا الكريم، ووالله لو كان هذا الفيلسوف حيًّا، ورأى من مصر ما نرى اليوم، لتنبَّأ لها هي أيضًا بذلك العهد الموسوم بالرجولة والبطولة.

إن تلك الصيحة «عيشوا في خطر» هي منذ اليوم صيحتنا. فلتكن هناك هدنة أو لا تكون، وَلْتَقَمْ للأعداء قائمة أو لا تقوم، فإن شعورنا بظُلٍّ من خطر يدنو من أرضنا، وإدراكنا للتبعة الملقاة على أكتافنا وإيماننا بأننا لن نحيا إلا بكفاحنا، كل ذلك كفيْل بأن يجعل منا ذئبًا تنام في الغاب بعين واحدة ... وتُضي النهار تسن المخلب وتحدُّ الناب! سنعيش في خطر ... ولن نخشاه لأن به عرفنا أنفسنا، واستوثقنا من صلابة عودنا، وأدركنا عندما سمعنا صوت العدو في غابنا. ... أَنَّا لسنا بالغزلان الشاردة ولا الظباء النافرة، ولكنَّا أسود كاسرة وسباع ظافرة.

وليس هذا علينا بجديد. فما من مَرَّة كنا نحس فيها أن العدو عدونا، وأن الحرب حربنا إلا قمنا فيها هذه القومة ... لقد كان لنا دائمًا من شعورنا هادٍ ومن فطرتنا مرشد

... لقد اشتعلت من حولنا نيران الحرب العالمية الأخيرة، فما استطاعت حرارتها أن تنفذ إلى قلوبنا ... فقد شممنا منها بأنوفنا الدقيقة دخان الختل والخديعة ... صاح المتحاربون بإفكهم يقولون: إنها حرب من أجل الحريات ... إنها حرب من أجل الحق ... إنها حرب من أجل نصرة الضعفاء وتحرير الأمم الصغيرة، ونشروا ميثاق الأطلنطي، وقطعوا العهود بقيام عالمٍ حرٍّ جديد ... كل هذا ما هَزَّ نفوسنا؛ لأننا كنا ندرك بإحساسنا الداخلي أن كل ذلك هراء، فنحن كنا نعلم فيمَ قامت تلك الحرب، وكان موقفنا فيها هو موقف جماعة من الأبرياء الأطهار، أَلَقْتَ بهم الظروف في حلبة قمار، وقد طفق دهاة المتقامرين يُغْرُونهم بأن يشتركوا في اللعب ويساهموا مُحاولين أن يَسْتَلُوا ما في جيوبهم من نقود، وأن يستنزفوا ما في عروقهم من دماء، وكلُّ يؤكد أنه هو الرابع، وأنَّ بربحه يعم الخير والرخاء مَن ساهم ودفع.

ولقد ساهمنا نحن فعلاً ودفعنا مدفوعين بعهود الصداقة للحليف، ولكننا ما شعرنا لحظة أن هذه المساعدة لها في نفوسنا من المعاني أكثر من كونها نوعاً من البر والصِّدقة، أو عربوناً للعهد والصداقة ... إن هذه المؤازرة في حلبة «القمار» ما كانت تشعرنا ببطولة، ولا كانت جديرة أن تُوقَّظَ فيها الإحساس بالفخار.

أما اليوم فنحن أمام عدوٍّ لنا وحدنا لا نُساق إليه سَوْقًا، ولا نُسَاوِم على مُخَاصِمته بالوعود ... نرى أقوى دول العالم تؤيده. ونرى أنفسنا منفردين بعداوته، ومع ذلك فقد نهضنا لسحقه بقلوب تَزَار في جوانبها البطولة كأنها الرياح الهوج ... غير معتمدين على أحد ولا منتظرين مكافأة من أحد.

تلك هي مصر ... دائماً ... صريحة صابرة صلبة صادقة ... لا يستنفرها للحرب ألف حليف قوي، ولا ألف وعد سخي، ولكنها تنهض بمفردها تناضل إذا تشبعت بالإيمان غير حافلة بمواطنِ الخطر.

(أخبار اليوم ١٢/٦/١٩٤٨م)

الصحافة امرأة ...

قال لي رئيس تحرير «أخبار اليوم» إِنَّ أَنْشَطَ مراسل للجريدة في الخارج ليس رجلًا ... بل امرأة ... هي تلك الصحفية الأمريكية التي تمد الدار بأغلب ما يحدث في واشنطن. لم يدهشني هذا القول ... فأنا أعتقد دائمًا أن المرأة أصلح من الرجل في الفرع الأهم من مهنة الصحافة ... وهو استقاء الأخبار ... فالصحفي فيما أعلم نوعان: «محرر» و«مخبر» والمرأة في رأيي خُلِقَتْ بطبعها مخبرة من الطراز الأول.

أذكر أن فتاة مُثَقَّفة سألتني ذات يوم عن رأيي في اشتغالها بالصحافة ... وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة؟ فقلت لها: ثقي أَنَّ المرأة مُخبرة صحفية بالفطرة سواء التحقت بجريدة، أو التحقت ببيتها ... لقد كان «آدم» في الجنة هادئًا وادعًا ساكنًا لا يفكر في شيء ولا يصل إلى عالمه أمر ... فمن الذي جاءه بالخبر الأول في تاريخ الأخبار؟ وأعني به اقتراح إبليس أكل الفاكهة المحرَّمة؟ أليست هي «حواء» التي نقلت إلى آدم هذا الخبر الهام؟!

من الذي كان يسمع من «الحية» الكلام، ويُجري معها «الأحاديث» ويستقي منها الأخبار ويفضي بها إلى آدم؟ أليست هي حواء؟
إنني أعتقد أن هذه الحادثة هي أول عمل صحفي منذ بدء الخليقة.
وبهذا تكون حواء، هي أول صحفية مخبرة ظهرت في الكون قبل أن تخطر فكرة الصحافة على بال مخلوق.

إن الصحافة في دم المرأة ... وهي عندما لا تجد خبرًا تنقله أو شخصًا تستجوبه، تعتمد إلى زوجها فتفضي إليه بكل ما سمعت في يومها، وما رأت في نهارها.

أما إذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج، فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال: أين كنت؟ ومع من كنت؟ وفيم كنتم تتحدثون؟ والويل له إذا تهرَّب من الإجابة متذرعًا

بالتعب أو راجياً تأجيل الحديث، أو مؤكّداً أنه لم يقابل أحداً ذا أهمية ولم يُصارِف شيئاً ذا بال فإنها عندئذٍ تعامله كما لو كان وزيراً خطيراً يخفي عنها عامداً أسرار أزمةٍ دولية! فهي تُضيقُ عليه الخناق، وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة، فإذا أكد لها وأقسم أنه ليس عنده ما يستحق الكلام، صاحت به: أهذا معقول؟ كل هذا الوقت في الخارج وليس عندك ما تقول؟

وتظل به تستحيته حتى يضطر المسكين إلى أن يلفق لها خبراً لم يقع ... ولكنها بسليقتها تدرك أن ما قال ليس له نصيب من الصحة. فتبتسم وتسكت مُتظاهرة بالإصغاء إلى أن يتورط في سلسلة من الأكاذيب والمتناقضات فتمسك به متلبساً بالأكذوبة فيعترف. وهنا تقول له:

– لن أصدقك بعد اليوم ... كل أخبارك كاذبة!
– ومن قال لك أن تتخذيني مَصْدرًا للأخبار؟
– لماذا تَخْتَرع؟ لماذا لا تقول الحقيقة؟
– لأنه لا توجد حقيقة ... لا يوجد شيء على الإطلاق ... وأنتِ مُصمّمة على أن تنتزعي مني خبراً بأي طريقة.

– أريد خبراً صحيحاً لا مخترعاً!
– لا يُوجد ... قلتُ لك: لا يُوجد ... ليس عندي اليوم خبر صحيح ... لم يبقَ إلا أن أخترع! وإلا فلأسكت سكوتاً مطبقاً ... وإياك أن تسأليني شيئاً أبداً.
– إذن اخترع ... هذا على كل حال خير من لا شيء.

نعم ... إن الصحافة الأخبارية ميراث المرأة عن جدتها حواء ... فَلْتَهَبط ميدانها إذا شاءت، وَلْتَنقل من الأخبار ما أرادت، وَلْتَسْتَقِ من المصادر ما وجدت، ولن يعوزها اليوم أيضاً في الدنيا «إبليس» ولن تنقصها «حياة» فإن محيط المجتمع من قومي وعالمي يعج ويضج بالأبالسة والشياطين والحَيَات والشعابين بأحاديثها ومغرياتها ومُقتَرحاتها. ولعل ملايين السنين قد علّمت المرأة الآن الحكمة ... فلن تنقل الخبر، الذي يخرج آدمها الجديد من الجنة.

(أخبار اليوم ٢٣/٧/١٩٤٩م)

المطبخ الحديث

قال «بول فاليري» في حديث له حول القراءة والكتب: إن الإنسانية في جملتها لا تقرأ اليوم شيئاً غير الصحف ... ثم انتهى إلى هذا القول المستغرب صدوره منه: «يجب تعليم تلاميذ المدارس أن يطالعوا الصحف! ولستُ أمزح ... ذلك أن الشعب إذا كان هو الحاكم فإن للحاكم أن يتسلم في كل صباح تقريراً عن حالة ملكه وحالة العالم. هذا التقرير موجود في الصحف. على أنه ينبغي تعلُّم كيف يستخرج ذلك منها. إن تحليل صحيفة من الصحف وغربلتها هما رياضة على أكبر جانب من الفائدة، وربما على أعظم جانب من القيمة أيضاً. إن الغذاء العقلي للجنس البشري إنما يُعدُّ بعد الآن إعداداً في مطابخ الصحف؛ لأن الأغلبية الساحقة ممن يعرفون القراءة لا يملكون من الوقت لهذه القراءة أكثر من ساعة في اليوم، وهذه الساعة التي تُختلَّس اختلاساً أثناء ركوب المترو أو القطار أو الأكل في مطعم، لا يمكن أن يشغلها غير الصحف.»

هذه حقيقة لا يمكن أن تُنكر وهي حقيقة مخيفة ... يدهشني، كيف أن مفكراً من طراز «فاليري» يبسطها بهذا الهدوء، حقاً لقد انتقلت مهمة تثقيف الشعوب من أيدي الفلاسفة والكتاب والشعراء والخطباء، إلى أيدي الصحفيين. قديماً كان الناس في البدو والحضر يتناولون أيضاً غذاءهم العقلي في كل حين ... لأن البشرية لم تنقطع يوماً عن طلب الطعام الذهني إلى جانب الطعام المادي ... ولكنها لم تكن تعرف صحافة يومية ولا أسبوعية ... كانت تعرف شعراء الحي، وخطباء الهياكل، وفلاسفة ... الأسواق ... وكان أولئك في جملتهم قوماً ممتازين أنبتتهم العبقريَّة وأرضعهم النبوغ. كان الغذاء العقلي من يد هؤلاء بديعاً في أغلب الأحيان مُصقًى، بعيداً عن السخف والإسفاف؛ لأن الموهوبين لا يسفون وإن أرادوا ... هكذا كان المطبخ العقلي في الماضي، فهل لنا أن نتفائل بالمطبخ الحديث؟

في رأيي قبل التفاؤل أو التشاؤم أن نتساءل أولاً: هل نوع الثقافة يتغير بتغير المجتمع؟ لا شك أن هنالك شيئاً يتغير ... وهناك شيئاً ثابتاً لا يتغير ... إن ألوان الطعام المادي قد تغيرت وتنوعت وتعقدت على مر الأحقاب والأزمان فاختفى العصيد والثريد، وظهر في المأكولات من مالح وحلو ومرطبات ومُثلّجات، كل تنوع وتجديد ... ولكن الفاكهة بقيت هي الفاكهة في كل وقت ومكان ... كذلك حياة المجتمع تتجدد فيها المظاهر وتتعدد المشكلات، ويظهر الراديو والسينما، وأحدث النظريات السياسية والاقتصادية، ولكن شيئاً فيها يبقى بلا تغيير هو الإحساس بالجمال الفكري والفني، فإن بيتاً من الشعر هزّ بدويّة في خيمتها منذ ألف عام، قد يهز حسناء اليوم في خدرها طرباً ... وأسطورة خيالية شُغف بها الأقدمون في مصر أو الهند أو اليونان قد تثير أوروبا الحديثة عجباً ... فاكهة الذهن والقلب تبقى دائماً نضرة ... ما دامت شجرة الحياة الإنسانية باقية باسقة.

إذا تذكّرنا ذلك، جاز لنا أن ننتظر من صحافة اليوم القيام بمهمة التثقيف العام ... لو راعت هذه الاعتبارات عند إعداد الغذاء العقلي للشعب.

الصحيفة المثالية في نظري مائدة يجب أن تكون حافلة بكل أنواع «الفيتامينات» يتناول القارئ منها ما يزجي فراغه وينمي اطلاعه، ويقوي عضلاته المفكرة. أما من تقصر في واحدة من هؤلاء فهي كالطعام الرديء يعطيك شيئاً ويمنع عنك أشياء.

(أخبار اليوم ٧/١٢/١٩٤٦م)

تربية الرأي العام

من نتائج الحضارة الحديثة وآثار التعليم الشامل الموحد، ظهور، ما يسمونه الرأي العام ... أي شعور الجماعة نحو موقف من المواقف، وقرارها إزاء مسألة من المسائل ... وهذا الشعور وهذا القرار ينبعان فجأة وفي عين الوقت، كأنهما خارجان من قلب واحد وعقل واحد ... لكأن هذا الرأي العام إذن كائن مستقل، يُخلَق ويحبو وينمو إلى أن يصبح قوة ناضجة محرّكة موجّهة، تؤثر في الدولة والمجتمع ويحسب لها الحكام والمحكومون ألف حساب.

كيف يوجد هذا الرأي العام؟

إنه يُوجَد كلما وُجِدَت التربة الصالحة لظهوره ... وهذه التربة الصالحة هي الأمة المُوَحَّدة في جنسها وعقائدها وتقاليدها وآمالها وأهدافها.

وكيف يُربَّى هذا الرأي العام؟

إنه يُربَّى، كما يُربَّى كل صغير، بالتعليم الشامل الواحد الذي يكون يَكُونُ العقلية الواحدة الشاملة ... بهذا النوع من التعليم يشب «الرأي العام» على تفكير واحد، يمكنه من أن يبت في مسائله برأي واحد سريع قاطع.

لقد كثر التساؤل عن «الرأي العام» في بلادنا ... وهل له وجود حقيقي؟

في رأيي أن بلادنا من أصلح البلاد تربةً لوجود رأي عام ناضج قوي ... ولكن الذي يعوزنا هو الاهتمام بتربية هذا المولود ... التربية التي تؤهله لأن يصبح كائنًا مستقلًا، واقفًا على قدميه. بفكر بعقل واحد، ويؤثر في الدولة والمجتمع تأثيرًا ظاهرًا فعليًا. التربة صالحة ولكن التربية مُهملة.

فكل شيء في مصر يجعل من هذا المولود مخلوقًا مُشوَّهًا مضطربًا مُبلبل الفكر، مُشَتَّت الرأي ... لأن كل شيء في بلادنا له نُسخ متعددة، وأثواب مختلفة ... لدينا تعليم أجنبي

وحكومي وأزهري، ودرعمي وجامعي وخارجي ... إلخ. ولدينا قضاء مختلط وشرعي ووطني ... ولدينا أحياء أوروبية، وأحياء وطنية وأحياء مختلطة ... ولدينا مُطَرَّبَشون ومُعَمَّمون و«مُقَبَّعون» و«مُلبَّدون» ولايسو الرِّيّ الإفرنجيّ والرِّيّ البلديّ، والرِّيّ المُختَلَط ... أي طربوش ومُعْطَف وجِلْبَاب ... أو «طاقية» و«بيجامة» و«قباب» ... إلخ.

كل هذا الخلط في أوضاع التعليم والتربية والإطار الذي يعيش داخله الناس في بلادنا ... جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة، كل عقلية تفكر تفكيراً خاصاً وترى الدنيا من زاوية منفردة ... وكان من أثر ذلك أن حُسِّس كل فرد داخل حلقة منفصلة من وضعه الذي نشأ عليه ... يحسب الدنيا دنياه، ورأيه هو وحده الذي على حق، لا يفهم جاره، ولا يشعر بشعور مواطن آخر ... وبتفكك عقلية الأمة الواحدة إلى عقلية الرأي العامّ المُوَحَّد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة، يتم تفكُّك الشخصية لأمة من الأمم ... وإذا تَفَكَّكَت شخصية أمة فمعنى ذلك انحلالها وموتها.

لذلك كان من ألزم الأمور لنا المبادَرة إلى الاهتمام بتربية «الرأي العام» تربية قوامها توحيد ثقافته الأولى وتوحيد محيطه العامّ ونظرته إلى الأشياء. إذا غنينا بهذه التربية المُوَحَّدة العناية الصادقة، ظفرنا بعد قليل بأمة قويّة الشخصية وبرأي عامّ مُوَحَّد الثقافة، مُتَّحِد في العقلية.

(أخبار اليوم ٣٠/٤/١٩٤٩م)

المسوخات

سمعت سيدة مصرية تأمر طفلها بتحية رجل من الأسرة قائلة:

– سَلِّمْ على «أونكل».

ثم استرسلت في الحديث قائلة: تانت، رَوْحِيَّة مسافرة يوم السبت!

ف عجبت لذلك وقلتُ في نفسي «أونكل» كلمة إنجليزية معناها «عَمِّي»، و«تانت» كلمة فرنسية معناها: «عَمَّتِي» والعم والعمة كلمتان موجودتان في لغتنا العربية والحمد لله ... فما هي ضرورة الاستعارة والاقتراض؟ ... وما هو الداعي إلى الشحاذة والسؤال؟!

حتى يوم يغنيننا الله عن لغة أجنبية تأبى إلا أن نمد لها يد الدُّل. لماذا نتمسح بكل ما هو أجنبي دون أن نشعر بخجل أو إذلال؟

تحدثتُ في ذلك بعدئذٍ إلى صديق فقال:

– ليت الأمر اقتصر على ما ذكرت، هنالك نوع من السيدات المصريات والفتيات،

نصِفُ حديثهن فيما بينهن بالفرنسية أو الإنجليزية بلا ضرورة ولا مُقْتَضٍ، سوى ما قام في ذهنهن من وَهْم بأنَّ هذا دليل المرأة الراقية!

يا للعجب! أما زالت في بلادنا هذه العقلية دليل المرأة الراقية أن تلوک في فمها بضعة ألفاظ أجنبية بلا داعٍ؟! أَلَمْ يُنَبَّهْ أَحَدٌ بَعْدُ سيداتنا وفتياتنا إلى أن هذا بالذات دليل المرأة التافهة، فهي التي في حاجة إلى مساحيق الكلمات الإفرنجية السطحية تلتطخ بها حديثاً لتخفي تفاهة شخصيتها؟!

أَيُّهَا المصرية ... اعلمي أن الزمن قد تَغَيَّرَ ... ذلك الزمن الذي كنا نشعر فيه أننا ديدان، وأن الأجانب عمالقة ... يوم كنا ننظر إلى كل ما يصدر عنا كأنه الحِطَّة والخطأ والابتدال ... حتى مزاينا التاريخية التقليدية كنا نستهن بها، وحتى مَبَاذله ومَفاسده التي

يخجل منها، كنا نحن نحترمها ونكبر من شأنها. كان يكفي أن يهبط بلادنا أفاق ذو لكنة إفرنجية، لتُفْتَحَ له أبواب الرزق والتقدير والتبجيل ... ما من أمة في الدهر فعلت فعلنا: وَضَعَتْ باختيارها على ظهورها البرادع ليمتطيها كل من يحمل جواز سفر أجنبيًا! الآن ونحن نريد أن نطرح من فوق ظهورنا البرادع، وأن نظهر أرضنا من الاحتلال الأجنبي، وأن نظهر للعالم أن لنا شخصية وقومية، يجب على المرأة المصرية أن تفهم أن عليها في ذلك واجبًا لا بُدَّ أن تؤديه، يجب أن تكون لها هي شخصية وقومية حتى يكون لأطفالها — وَهُمْ مصر الغد — شخصيتهم وقوميتهم. احترمي أيتها المرأة لغة بلادك، وأنشئي أولادك على احترام لغة بلادهم.

أسمع مع ذلك همسًا من قائل يقول في أذني:

— أَلْقِ بهذه النصيحة إلى أولئك الذين يُلقُونَ بفتياتهم في أحضان بعض المدارس الأجنبية التي تَسْتَلُّ قوميتهم وتُضَيِّعُ معالم شخصيتهم، وتجعلن مسخًا من نساء لا هُنَّ مِصريات ولا هُنَّ أوروبيات.

ومن بين هؤلاء الآباء للأسف وزراء للمعارف، يشيدون ببرامج المعاهد المصرية، ويرسلون بعد ذلك أبناءهم وبناتهم إلى بعض هذه المعاهد الأجنبية، شأنهم شأن صاحب المطعم الذي يعلن ويدعو إلى مطعمه، بينما هو يتناول وجباته في مطعم آخر! أه لضعف إيماننا بأنفسنا!

هذا الداء القديم يجب أن يُستأصل أولاً من الرأس.

لي كلمة أحب أن يسمعها وزير المعارف وهو على ما أعهد فيه من أصحاب الاتجاهات القومية والنوايا الطيبة والنزعات الإصلاحية: إن الجلاء العسكري يجب أن يصاحبه «الجلاء المعنوي» لكل احتلال روحي يريد أن يجثم على أفكارنا وصدورنا ليمنعنا من تكوين ذاتيتنا. ولنقصر هذه الفكرة الآن على «تربية الفتاة المصرية» وهي الأم أي «ترسانة» الأمة التي تمدها بخير عتاها وهي أبناؤها.

ما هي السياسة المرسومة لتكوين المرأة المصرية؟ من السهل علينا إذا ذُكِرَتْ «المرأة الإنجليزية»، أو الألمانية أو الفرنسية أو الأمريكية أن ندرك في الحال صفاتها ومميزاتها، ومقومات شخصيتها المفروزة المستقلة عن غيرها، فمتى نقول «المرأة المصرية» ونفهم من ذلك في الحال كيانها المستقل وذاتيتها المنفصلة؟ ما هو «النموذج» أو «التصميم» الذي وضعته وزارة المعارف لامرأة مصرية نموذجية؟

لنا أن نرسل البعثات وأن نستقدم الخبراء وأن نتعلم من الأجانب، وأن نطلع على أحدث النظم، وأن نسترشد بأكمل الوسائل، ولكن المطلوب بعد ذلك هو إفراغ كل هذا

في قالبٍ جديد هو من تصميمنا. قالب نحرس في صنعه على كل فضائل جنسنا ومزايا طبائِعنا وخلاصة تجاربنا مع خير ضرورات العصر الحاضر، ومُستلزمات التطور العلمي والصحي والاجتماعي.

هذا القالب إذا وُجد، وهذا النموذج إذا وُضع، فهما كفيلا أن يَمَلأنا اطمئناناً ... لا على مستقبل المرأة المصرية وحدها ... بل على مستقبل نهضتنا كلها، فهو الذي سيوحد العقلية في الأمة بأسرها ... ومتى تم ذلك ظهرت لنا في الحال قومية موحدة وشخصية واحدة. «وحدَّ عقلية الأم تُوحد عقلية الأمة!»

(آخر ساعة ٢٦ يونيو ١٩٤٦م)

القبح الجميل

هل توجد «معاهد للتجميل» من نوع جديد في مستقبل الأيام؟ إذا تغيّرت فكرتنا عن «الجمال» فإن هذه المعاهد ستصبح ضرورة من ضرورات العصر ... ما من أحد يخطر له أن سلطان الجمال يزول يوماً عن هذا الوجود. فإن عرشه أثبت العروش ... لأن في يده ذلك الصولجان الخفي الذي يمس القلوب فتخضع وتطيع دون أن تناقش في مصدر سلطة تلك القوة، أو تجادل في حق ذلك الصولجان أو شرعية ذلك السلطان.

ولكن الذي قد يغيره الزمن، وتتجه إليه بحوث الخبراء وتتناوله أيدي سحرة التجميل من العلماء والفنانين والأخصّاء هو نوع من «الجمال» يمكن استخراجه من القبح، كما يُستخرج الماس من الفحم.

أهذا ممكن الحدوث حقاً؟

ليس من السهل إقناع المرتاب بالدليل المنطقي، ولكن ما من أحد منا لم يصادف في حياته تلك المعجزة دون أن يتنبّه لها.

ابحث في ذاكرتك، فإنك لا شك واجد فيها نموذجاً لامرأة قبيحة المنظر قابلتها يوماً فملأت عينيك اكتئاباً، وصدرك ضيقاً ونفسك انقباضاً إلى أن فتحت شفيتها وتكلّمت ... فكأن نافذة من النور قد فتحت ... وإذا الضياء يتدفق من جوفها فيضفي على وجهها حلاوة لم تكن ... وإذا موسيقى الألفاظ في فمها، ورقّة المعاني في حديثها أيدٍ سحرية خفية تعدل وتبدّل في تقاطيعها ملامحها وقسماتها.

فالشعر القبيح قد حسّن فجأة في نظرك، والأنف الطويل قد راق في الحال لبصرك ... وإذا أنت تُسائل نفسك في عجب: ماذا حدث لهذه المرأة؟

سؤال نلقيه على أنفسنا في المسارح، إذا أُتيح لنا يوماً أن نرى أستار «الديكور» الملونة عن قرب ... ما هذا «القماش» الرخيص «والخيش» المُرَقّع والطلاء الباهت؟ أهذه حديقة

غناء؟ أهذه نافورة ماء؟ فما تكاد أضواء المصابيح الوهاجة «البروجكتور» تنبعث حتى يختفي القماش والطلاء والخيش، وإذا أنت حقاً أمام فردوس يموج بالزهر النضر ونافورة مرمرية ينبثق منها ماء كأنه ندى الفجر.

هناك أيضاً لون من القبح ينقلب جمالاً ... لا لانعكاس ضوء داخل عليه ... بل لسبب آخر: هو إشعاعه بنوع من الحرارة اللطيفة والدفع الجميل والرفق الحنون والاطمئنان المريح.

تلك امرأة مثل جوهر «الراديوم» إنها على غزارة ليست جميلة المنظر، كجواهر «الماس»، ولكن قيمتها وحُسنها في ذلك الإشعاع الخلقي الذي يصدر عن طبيعتها الرحيمة الوديعة وطينتها الطيبة الخيرة ... وهي مثل: «الراديوم» تستمد سلطانها من ذلك البريق الخارجي الذي يزهو به «الماس» ولا تصلح قلائد وأقراطاً وأساور تزين النحور والأذان والمعاصم بتألقها الظاهر ... ولكنها تستمد السلطة من ذلك المعين العجيب الذي يبرئ من الأدواء، وتستلهم القوة من ذلك الحسن الخلقي الباطني الذي ينثر الراحة ويعجل بالشفاء.

حسن يبهر وحسن يريح ... جمال يُشقي وجمال يشفى، وكلاهما يظفر بقلب الرجل ويؤثّر في مصيره.

لا وجود إذن لأسطورة «القبح» الذي تخشاه المرأة أكثر من الموت، فالقبح قد يتحوّل إلى جمال، وإن عملية التحويل قد تصبح في الغد ممكنة شائعة، إذا أنشئت تلك المعاهد، التي تدخلها الدميمة فتخرج مُزوّدة بسلاح يُعادل سلاح الجمال، وسلطان يوازن سلطان الجميلات.

(آخر ساعة ٧ أغسطس ١٩٤٦م)

سلاح المرأة الذي لا تستعمله

سألتني سيدة هذا السؤال المخرج: مَنْ المسئول أولاً عن الهناء الزوجي، الرجل أو المرأة؟
ووجه المخرج في هذا الأمر أنني إذا أردتُ الإجابة بالصدق والصراحة، فأني سأُتهم
حتماً بمحاباة الرجل.

قد يكون من الصواب والكياسة وحسن السياسة أن نقول إن الأسرة «شركة مساهمة»
يقدم فيها كل طرف نصيباً معيناً من الهناء.

ولكن السؤال قد وضع من غير شك للحالات المستعصية. ومن بينها تلك الحالة التي
يغفل فيها أحد الطرفين أو يتهاون عن تقديم القسط، هل تفلس الشركة في هذه الحالة؟
أو أن هنالك رصيذاً مُدخراً أو «سلفيات» أو «تسويات» يجب أن يتحمل أعباءها الطرف
الآخر عن طيب خاطر حتى ينقذ الشركة ويسير أمورها ويعيد إليها الثقة والثبات، ويرد
عليها مركزها الموطن الأركان.

قالت السيدة على الفور: وَمَنْ الطرف الذي يتحمل أعباء «السلفيات» و«التسويات»؟
- مركز الشركة ولا شك. أعني المدير المقيم ... المركز طبعاً هو البيت ... وإذا قيل
«بيت» اتَّجهَ الذهن في الحال إلى «المرأة» فهي المدير المقيمة التي تدير أموره وتدبر شئونه.
- حقاً المرأة هي مركز البيت ولكن ...

- أكثر من ذلك ... المرأة في البيت مثل الروح في الجسم. مَنْ المسئول عن شقاء الجسم،
وعن هناء الجسم؟ أليست هي الروح التي تحل فيه؟
فأطرقت السيدة لحظة تفكر ... ثم رفعت رأسها قائلة: والرجل! ما وظيفته إذن في
هذا الجسم؟

فقلت بلا تردد: الرجل في هذا الجسم هو الرأس ... الرأس المُفَكَّر ... الذي يعرف كيف يحتال على الرزق، وكيف يأتي بالنقود، ولكنه لا يعرف كيف يُوحى بهناء أو شقاء ... تلك مهمة الروح ... كل شعور أو إحساس ينعم به الجسم أو يشقى هو من إحياء الروح ... كذلك كل نعيم أو جحيم يحل في البيت هو من وحي المرأة.

– ألا تعترف أن من الرجال من يأتون إلى البيت بالجحيم!

– أعترف ... ومثلهم أيضًا مثل الرأس الذي يتعب صاحبه، ويكدر غيره بالأفكار المظلمة والخواطر القائمة. ولكن الروح بضائها وإشراقها تستطيع أن تُبدد سُحْب الأفكار السود، كذلك المرأة بلطفها وابتسامها وتسامحها ونُبْل قلبها تستطيع أن تطرد من بيتها أشباح الجحيم.

فقالت السيدة بارتياح: رأس الرجل ليس هيئاً إلى هذا الحد ... إن من الرءوس ما لا يستطيع أن يحطمها الصخر!

فقلت باقتناع: هذا صحيح. من الرءوس ما لا يحطمها الصخر ... ولكن ثقي أن كل الرءوس يحطمها القلب. ما من رأس وقف أمام قلب إلا كان القلب هو المنتصر.

فأطرقت السيدة وهمست: ربما كان هذا حقاً ... ولكن ...

فبادرتُ مقاطعاً: لا تقولي «ولكن» ... المصيبة كلها أن المرأة التي تعرف قوة القلب نادرة جداً ... أكثر النساء يُصارعن الرجال بسلاح الرجال. وتجعل رأسها يواجه رأسه ... وإذا وقف رأس أمام رأس في بيت أو أسرة، فالويل كل الويل لهذا البيت وهذه الأسرة ... إنه الشقاء والشقاق والعراك والنزاع، رأس ضد رأس كصخرة ضد صخرة ... ولكن اجعلي قلبك هو الذي يتلقى رأس زوجك ... فالرأس إن التقى بالقلب كالصخرة إذا أُلقيت في النبع.

(آخر ساعة ١٧ يوليو ١٩٤٦م)

أسعد زوجين

جلس يصغي بانتباه إلى جهاز الراديو وقد تصاعد منه صوت ناعم يذيع:
يوضع اللحم في البرام ... ثم يُغَطَّى بالبطاطس ... وتُفَرَّى بصلّة فرياً ناعماً جداً ...
وتُحَمَّر في السمن حتى يصفر لونها، فيضاف الدقيق ويُقَلَّب حتى يصبح ذا لون بُنِّي فاتح
... ثم تُزَاح الصلصة من على النار وتضاف مع البقدونس والملح والفلفل والبهار.
إلى آخر ما جاء في برنامج التدبير المنزليّ ذلك اليوم ... وكان ذلك المستمِع الكريم
يسمع بقلب يخفق هياماً، وفؤاد يطير شوقاً ولعاب يسيل حناناً ... وبرح به الغرام ...
والآن تعشق قبل العين أحياناً ... فلم يُطِق صبراً وقام إلى أهله يعلن إليهم: لا بدّ لي من
الزواج بهذه المرأة.

فسألوه: هل تعرفها؟...

– لا أعرف إلا إذاعتها اللذيذة في الراديو إنها تهز قلبي.

وكان صاحبنا هذا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة، فإذا سأله طبيب
يوماً: أين معدتك؟ أشار إلى قلبه ... وإذا سأله أين قلبك؟ أشار إلى معدته ... وكان لا بدّ
للمرأة التي تريد اكتساب قلبه من أن تستولي على المعدة أولاً ... فإذا ملكتها ملكت كل
شيء.

وتمّت مراسيم القران ... وجاءت ليلة الزفاف، وأُحِيَّت الحفلة إحدى المطربات، جعلت
تغني طول الليل «أحنا الاثنين والعين في العين، أهنأ قلبين وأسعد عريسين ...»
والعريس يتململ في مقعده ضجرًا من هذا الغناء، ويودّ الكلام في موضوع أعز عليه
والدَّ من هذا الهراء.

وضاق صدره آخر الأمر ولم يحتمل فانحنى على عروسه وقال لها باهتمام: حَدِّثيني بعد أن وضعت اللحم في البرام ... لقد قلت إنه يجب أن تُفَرِّى البصلة فرياً ناعماً جداً وتُحَمَّر في السمن ... ما قولك لو أضفنا مع البصل شيئاً من الثوم والكزبرة والكمون ...؟ فنظرت إليه العروس طويلاً ولم تُجِب ...

ومرّت الأيام الأولى من أيام الزوجية ... والعريس يتقلَّب على الشوق ويتقلَّى ... منتظراً اليوم الذي تدخل فيه زوجته المطبخ وتلبس فوطتها، وتشمر عن ساعديها، وتطبخ له تلك الأصناف الشهية التي طالما شَنَّفَت أسماعه بوصفها اللذيذ في الراديو. ودخلت الزوجة المطبخ أخيراً. وزوجها يباركها ويسأل الله أن يحميها ... وعاد من عمله في الظهر وهو يتلمظ ويقول: «صلوات الله على تلك التي ستسعدني بالأكلة المثالية والطبخة النموذجية ...»

وانتظر ساعة ثم ساعة ... ثم كاد العصر يؤذن فخرجت الزوجة النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان معاً من وجهها وهي «ملبوخة» من رأسها إلى قدمها ... وقالت له: لا مؤاخذه! أنا استسهلتُ خوفاً من التأخير، وعملت لك طبق بيض مقلي. فأخفى الزوج حسرته وكتّم غضبه ومدَّ يده صامتاً إلى طبق البيض المقلي كما قالت ... فوجد سمنه قد تبخّر، وبياضه قد احترق وصفاره قد تحجّر ... ودقّت الساعة الرابعة فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج فارتدتها وانطلقت مسرعة كأنها على موعد هامّ.

وما وافت الخامسة والربع حتى سمع الزوج المسكين صوت امراته الحنون يتصاعد من الراديو، ويذيع على المستمعين المُصدِّقين: يُوضَع اللَّحْمُ في البرام ثم يُغَطَّى بالبطاطس ... وتُفَرِّى بصلة فرياً ناعماً جداً ... وتُحَمَّر في السمن ... إلخ إلخ. فأطرق الزوج مَلِيّاً ... ولم يُعَدِّ يدرى ماذا يفعل: هل يضحك؟ هل يبكي؟

(آخر ساعة ٢٤/٧/١٩٤٦م)

المرأة بعد ٢٠٠٠ سنة

أردتُ يوماً أن أتخذ مهنة الفَلَكِي لحظة، وأن أسدد المنظار إلى النجوم وأطالع الغيب؛ لأرى ما سوف يحدث للمرأة من تطوُّر في مستقبل الأيام ... وأستطيع أن أوكد للناس أنني أبصرتُ الذي سوف يقع على وجه الدقة والتحقيق وهو الآتي:

في سنة ٢٠٠٠ ميلادية، تظفر المرأة بحلمها، وتنال المساواة بالرجل في كافّة الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية، فلم يُعدْ هنالك ما يحول بينها وبين المناصب التي استأثر بها الرجل ... فهي تتولّى الآن رئاسة الوزارة وتؤلّف وزارات بعض أعضائها من الرجال والبعض من النساء، وهي تشترك في الأحزاب التي ينضم إليها الرجال، وترأس بعضها، ولم يُعدْ لها أحزاب نسائية خاصة بها.

في سنة ٢١٠٠ ميلادية يصبح للمرأة الحق في أن تُعيّن قاضية في المحاكم العليا، وأن ترأس محاكم النقض، وأن تكون في منصب النائب العام.

في سنة ٢٢٠٠ ميلادية، تحتل المرأة المراكز العليا في الجيش. فهي تستطيع أن تكون قائدة ورئيسة لأركان الحرب. وهي تشترك بالفعل إلى جانب الرجل في كل أعمال الحروب، فهي تقود الدبابة الطائرة، وتلقى القنابل الذريّة والصاروخية، وتسدد أشعة الموت وتقود الأساطيل وتدير البوارج، وتعين في منصب الأميرال والمارشال في البر والبحر والجوّ.

في سنة ٢٤٠٠ ميلادية مُحيّت الفروق تماماً بين الرجال والنساء ... في الوظائف العامة والخاصة ... وفي المظاهر الخارجية والداخلية فلم تَعُدْ هنالك ثياب للمرأة وثياب للرجل ... واختفى الفرق بين شعر رأس المرأة وشعر رأس الرجل ... وقد أدّى تعميم الخدمة العسكرية والألعاب الرياضية للجنسين إلى ظهور العضلات في جسم المرأة وضمور الثديين، وقسوة النظرة في العينين.

في سنة ٢٥٠٠ ميلادية، نقص النسل الآدمي نقصاً مُروّعاً فلم يعد هناك ما يُغري الرجل بالاقتراب من المرأة ... وزالت من الأذهان كلمة «السكر» أو «الفِتنة» التي قيل في الأساطير الشعرية القديمة إن المرأة اختُصّت بها منذ آلاف السنين.

في سنة ٢٦٠٠ ميلادية، وقع حدث عجيب أقام الدنيا، وأقعد لها فقد ظهرت بين النساء امرأة شاذة تركت شعر رأسها يسترسل على كتفيها فأحاط بها الرجال والتهموها بنظراتهم، وتبعوها في كل مكانٍ دهشين مُعجَبين إلى أن أنقذها من الزحام، رجال ونساء البوليس.

في سنة ٢٧٠٠ ميلادية، انتشرت بين النساء بدعة ترك الشعر وإرساله على الكتفين ... كما ظهرت بينهن «موضة» صنع ثياب خاصّة بهن.

في سنة ٢٧٥٠ ميلادية، وقعت لأول مرّة منذ قرون حوادث غرامية بين الرجال والنساء على النحو الذي ورد في القصص والشعر القديم. ورفض كثير من النساء مُزاولة الأعمال العامّة رغبةً منهن في الانقطاع لتربية ثمرة غرامهن.

في سنة ٢٨٠٠ ميلادية، طغى جنون غريب على مشاعر النساء هي عاطفة «الأمومة» وكان من أثر ذلك ترك النساء أكثر الوظائف في الجيش والقضاء والبوليس، مُفضّلات حياة البيت.

في سنة ٢٩٠٠ ميلادية، تطوّر جريء في المرأة قد وقع، وهو يُعدُّ أجراً حدث في تاريخها ... لقد لبست امرأة «برقعاً» أخفت به شطراً من وجهها ... فلم يظهر منه غير عينيها البرأقتين، وقد فُتِنَ بها عدّة رجال انتحروا بعضهم على عتبة بيتها غراماً.

في سنة ٣٠٠٠ ميلادية، عمّت بين النساء وموضة، «لبس البراقع». في سنة ٣٥٠٠ ميلادية، استقرّت المرأة في البيت ومُحيّت من الأذهان كل تلك الأفكار التاريخية العتيقة التي شاعت قديماً عن خروج المرأة إلى المجتمع مُشاركة الرجل في أعماله.

في سنة ٣٩٤٦ ميلادية عمّ الدنيا نظام الحجاب التام للمرأة، فلم يعد هناك اختلاط بين الرجال والنساء، ولم تعد تَظْهَرُ المرأة في مُجتمعات الرجال ... وتم الفصل بين مجالس النساء ومجالس الرجال ... ولم يعد للخاطب حق الانفراد بخطيبته قبل الزواج ... وقد لُوْحِظَ في ذلك الجيل أنّ العزوبة كادت تختفي، وأن الزواج قد اشتد الإقبال عليه إلى حد غير معروف منذ مئات الأعوام ... وأن الفساد الخلقي قد خَفَّت وطأته.

وهنا طرحتُ المنظار من يدي ... ولم أُرِد أن أمضي في مُطالعة الغيب ومُشاهدة سنة ٣٩٤٦م خشية أن أتعرّض لسخط أحزابنا النسائية المنادية بالتقدّم والتحرُّر والتجديد، وفضّلتُ أن أعود في الحال إلى سنة ١٩٤٦م حتى لا أُنَّهَم بالرجعية والتأخر والجمود!

(آخر ساعة ١٠/٧/١٩٤٦م)

المرأة والأسد

قرأتُ في إحدى الصحف التي تُنشر في مدينة «برمنجهام» بإنجلترا هذا الإعلان العجيب:
مطلوب فتاة لتقليم مَخالب بعض السَّباع التي ستعرض قريباً في ملعب «سيرك»
ببرمنجهام. أجرة حسنة. شروط ملائمة.

ملحوظة: السَّباع تُفضِّل الفتيات السمرات أو الحمراوات.
ولستُ أدري أهذا ذوق السباع حقاً أم هو ذوق صاحب الملعب! مهما يكن من أمر
فقد علمنا نحن الرجال أن لنا منافساً خطراً هو «ملك الغابة».

بقي أن نعرف رأي الفتاة السمرات أو الحمراء التي ستتقدم إلى منافسينا الخطيرين،
وتتناول أكَفَّهُم وتداعب مخالبهم؟ ما شعورها وما قولها! هَمَّني أن أعرف ذلك بأيِّ وسيلة،
وفكَّرت قليلاً فرأيتُ أقرب السبل أن أُلقي هذا السؤال على «مقلمة الأظافر»، في حانوت
حلاقي. فذهبت إليها وطلبتُها فأقبلتُ والدهشة في عينيها وكأنها تتساءل: ماذا جرى له
اليوم؟ ... ذلك أنني أعرفها وأعرف المحل من أعوام، وتراني أجيء لأحلق ذقني أو أقص
شعري، وأخرج على عجل، وأنا أرمقها بنظرة كلِّما رأيت بين يديها رجلاً خشناً يلعب
أظافره! وقالت لي مرَّة إنها تخاف من نظرتي وتساألني ماذا جَنْتُ؟ فقلتُ لها: كان يجب
أن تبصقي في وجه ذلك الرجل الذي يمد لمثلِكَ أصابعه «الرقيقة وأنامله الدقيقة»!

فلما أقبلت واقتربت مِنِّي وتناولتُ يدي، ورأيتُ على وجهها ابتسامة فَهِمْتُ مغزاها.
وحَرَكَتُ شفيتها حركة أدركتُ معناها فأسرعتُ قائلاً لها: لا لا تبصقي في وجهي! المسألة
لها أصل.

— مانيكور؟

- لا ... لا تفعلي شيئاً إنني مُصرٌّ على رأيي. ولا أبغض شيئاً مثل رؤية أظافري تلمع وتبرق كأصابع النساء! ولكن قصّيتها فقط قصّاً بسيطاً ... وسأدفع أجرة «المانيكور» كاملاً ... المهم هو أنني أريد أن أحادثك.

- حب وغرام؟

- صحافة

- ماذا تقول؟

فلم أجبها، ولكنني نظرتُ إلى لونها ولون شعرها وصحّت كالمخاطب لنفسي: «يا للعجب!» أراك منذ زمن ولا أفطن إلى لون شعرك أنتِ فتاة حمراء! أنتِ المطلب والبغية. مغارلة؟

- لا، إنني أتكلم بلسان غيري، أنتِ تُمثّلين بالضبط ذوق من هو أعظم مني وأضخم وأخطر وأكثر وحشية.

- من هذا الرجل؟

- إنه ليس رجلاً إنه ... سبع.

- ماذا تقول؟

فأخرجتُ من جيبِي الجريدة الإنجليزية وأريتها الإعلان! فما كادت تقرأه حتى ضجكت، ونظرت إلى وجهها في المرأة وقالت: هل تعتقد أنني حائزة لكافة الشروط؟ - إن السّباع كما قرأتِ لا تطلب أكثر من ذلك؟

- حقاً إنها ليست مثلكم معشر الرجال، إنها في غاية التواضع!

- والآن ... أريد منك إجابة صريحة: هل تقبلين حقاً أن تُقلّمي مَخالب أسد؟

- ثِقْ أنه شرف عظيم.

- ألا تخافين؟

- ولماذا أخاف؟

- أنتِ المرأة الضعيفة؟ أنتِ التي تصرخين فزعاً لرؤية فأر صغير!

- هذا صحيح. منظر فأرٍ يرعبنا، ولا يفرعنا أن نمسح على وجه أسد، توافه الأمور

تبكيننا، ونتجلّد أمام أفضع الآلام، هكذا نحن النساء ... وهذا هو الفرق بيننا وبينكم أنتم الرجال.

- إنه التناقض. خُلِقَ التناقض من ضلع المرأة!

- سمّه ما شئت. ولكن ... تلك هي الحقيقة أنني لن أحجم عن إجراء «مانيكور» كامل

لسبع من السباع إذا طلبوا إليّ ذلك.

- يا للعجب! أهي قوة؟ فيمن افترضنا فيها الضعف بغرورنا؟ أهي شجاعة فيمن ظننا فيها الجُبْن؟ أم هو والجُبْن يُخْرِجَان عنصرًا مضادًا لهما، كما يخرج «البنسلين» من بعض الجراثيم!

- ما شأن «البنسلين» فيما نحن فيه؟ لماذا تعقدون الأشياء. وتلفون كل شيء في قراطيس من الكلام الذي تحسنونه. نحن بكل بساطة خلقنا للترويض.

- ترويض الوحوش؟

- إذا شئت. وأنتم الرجال فصيلة من تلك الفصائل التي وُجِدْنَا لترويضها.

- شكرًا لك

- عفواً

- إذن لا يُوجَد عندك فَرْقٌ بين مخالف أسد وأظافر رجل؟

- أثناء عملية «المانيكور» لا يُوجَد فرق.

- شيء غريب. كلها إذن حيوانات في نظرك ... تمد إليك أيديها أو مخالبيها صاغرة، وإذا زمجرت أو تبرمت، كفى أن ترمقيها بنظرة أو تزجريها بلفظة أو تسحريها ببسمة لتعود إلى الطاعة مؤدّبة وديعة. سلاحك رقيق نفّاذ فعّال؛ لأنه لم يُصنَّع من القوة ككل الأسلحة بل صُنِعَ من نقيضه وهو الضعف، إنك تتسلطين على الرجل بدمعة، وعلى السبع بصيحة، وعلى الطفل بنظرة.

- وهذا هو معنى «الترويض» إنه في جوهره روح «الأمومة»، إن «الأم» هي الحقيقة الكبرى في تركيب «المرأة» وبهذه العاطفة وحدها تتسلط على كل الكائنات.

سمعت ذلك دهشًا من فَم تلك الفتاة العاملة. كيف استطاعت أن تتحدث هذا الحديث وتأتي بهذا التعليل بغير حاجة إلى علم ولا تفكير؟ ذلك أيضًا سرٌّ من أسرار القوة عند المرأة.

- بقي عندي سؤال: بماذا تعللين تفضيل السباع للسمراء والحمراء كما جاء في الإعلان؟

فحدجنتني بنظرة ماكرة وقالت باسمه: هذا سؤال يُلَقَى على السباع، لقد سألتني فيما يختص بي فأجبتك.

معقول. لأول مرة أسمع فيها من امرأة إجابة معقولة! ولم أرَ بُدًا من الانصراف ... فانصرفْتُ وأنا أردد في نفسي السؤال ... ولا أتلقي الجواب ... أه ... كيف السبيل؟

قلت ذات يوم

وأين هو الصحفي الذي يُجري حديثاً مع السباع؟!

(آخر ساعة ١١/٥/١٩٤٦م)

جنون وجنون

هنالك نوعان من الجنون في الإسراف والإنفاق يلحقان الإنسان، النوع الأول يراه الناس مُمَثِّلًا في شخص ذلك الذي يبذل الأموال الطائلة عن طيب خاطر من أجل اقتناء مجموعة نادرة من طوابع البريد أو السجاجيد أو اللوحات الفنية أو التحف الأثرية ... إن الناس ولا سيما الورثة منهم ينظرون إلى ألوف الجنيهاات تذهب في هذه الأشياء التي لا نفع فيها ولا فائدة منها، فيهزون الرؤوس أسفًا ويتهامسون!

— جنون! سفه! ألا يستحق هذا المبذر أن يُحَجَّرَ عليه؟

أمَّا النوع الآخر من الجنون فيتمثل في شخص ذلك المقامر. الذي يلقي بأكوام الذهب على المائدة الخضراء، فتبتلعها في طرفة عين ... مائدة بريئة المظهر، ولكن لها فمًا مثل فم البحر الأبيض والبحر الأحمر ... تغيب فيه الألوف والملايين في سرعة البرق ... دون أن يظهر على وَجْهها الأخضر موج ولا زَبَد.

هذا المقامر أيضًا مجنون ... ولكن العجيب في أمر الناس أنهم لا يقسون عليه في النقد، كما يقسون على الأول ... لعل السبب أنهم يأملون معه أن يربح يومًا فيعوض ما خسر.

ولكن الذي يحدث في النهاية يدعو حَقًّا إلى العجب! يموت المبذر الهاوي، تاركًا مجموعاته وتحفه التي زعم الناس ألا نفع فيأتي الخبراء والمُتَمَنِّنون والمشترون فيعرضون على الورثة فيها من الأثمان أكثر ما تستطيع أن تذهب الظنون ... وإذا الورثة يجدون أنفسهم فجأةً أمام كنز عميق بَرَّاق قد فُتِحَ ... ثم يموت المَقَامِرُ المغامر ... وتُجَرَّد تَرَكَّتْهُ فإذا المائدة الخضراء قد ابتلعت في جوفها آخر مليم في خزانته ... ما ربحه منها وما ادَّخر لأنها لا تعطيك اليوم إلا لتأخذ منك غَدًا ... ومنذ جلست إلى صدرها وهي تَعُدُّك عبدها، وتربطك بحبالها وتكتبك عندها — رابحًا أو خاسرًا — في الغارقين.

هذان النوعان من الجنون في الإسراف والإنفاق عند الأفراد لهما مثيل عند الدول. النوع الأول يتمثل في شخص تلك الدولة التي أُولِعَ حُكَّامُهَا بِالْتَّحَفِ الثَّمِينَةِ والفنون الرائعة والقصور الفخمة والهياكل الضخمة ... لقد بنى «خوفو» الهرم الأكبر، وأنفق في بنائه عشرين عامًا، وحشد له عشرات الألوف من الصَّنَاع والعمال والمهندسين والفنانين ... فقال الحمقى من المؤرخين: انظروا إلى هذا المجنون. المُبَذِّرُ المُسْتَبِدُّ الذي أضاع مال الشعب وجهد الشعب ووقت الشعب في شيء لا نفع فيه لهم ولا ربح لهم منه!

ومات «خوفو» ولكن التحفة الثمينة بَقِيَتْ ... لا أقول ولا أُردِّد فقط ما قالت الأجيال وردَّدت من أنها بقيت دليلًا على مَجْدِ مصر وفَنِّها وعلمها ... بل أقول أكثر من ذلك. إن هذه التحفة التي يسمونها «الهرم» قد بَقِيَتْ للورثة كَنَزًا مَادِّيًّا نَقْدِيًّا يَدُرُّ عليها في كل عام منذ عشرات الأعوام مَالًا وفيرًا يأتي به السائحون من أركان الدنيا الأربعة! ما أنفقه: خوفو، من مال جناه الورثة أضعافًا مُضَاعَفَةً على مر الأجيال ... ولن نفرغ بَعْدُ من تحصيل الأرباح ... بل لعلنا في مستقبل أيامنا يوم نعرف كيف نعرض كنوزنا ونجتذب السياح ونكثر لهم من الطرق والفنادق والملاهي ووسائل الراحة، تتفتح لنا من الموارد ما لم يخطر على بال أجدادنا من خوفو إلى ابن طولون!

رأيتُ بذخ ملوك فرنسا في «فرساي» منذ أسبوع، أيَّ فَنٍّ في التصوير والنحت والنقش على الحائط والسقف والحجر والبرونز والقماش والسجاد، ذلك البذخ الذي أدَّى إلى الثورة الفرنسية؛ لأن الشعب لم يكن يدرك وقتئذٍ أن هذه الكنوز هي له دائمًا في آخر الأمر ... إِنَّ الورثة دائمًا متعجلون ولكن هذا الشعب اليوم يدرك ويحمد ويشكر ... وها هي ذي مقالة للمؤرخ الفرنسي المعاصر «بيير جاكسوت» نشرها منذ أيام يقول فيها: شكرًا أيها المبدرون! جنيهاً، دولارات، فرنكات بلجيكية، فرنكات سويسرية كلها تتدفق الآن إلى خزائن «بنك فرنسا» لا مشروعات الخبراء الماليين، ولا تقارير العلماء الاقتصاديين، ولا التزام التقشف والحرمان لا شيء من هذا كله استطاع أن يصلح مركز فرنسا المالي.

ولكن الذي استطاع ذلك هو أحجار قصورنا ومتاحفنا وكنائسنا ... شكرًا يا فرنسوا الأول! شكرًا يا لويس الرابع عشر! شكرًا يا بابوات أفينيون! شكرًا أيها الكرادلة والنبلاء والمحظيَّات! إنكم جميعًا تساوون اليوم ثقلكم دولارات! بفضلكم أنتم سيعيش شعب فرنسا هذا الشتاء عيشًا راضيًا. إنكم أنتم بتحفكم وقصوركم وأثركم أثمن من أي سند من سندات البورصة، وأثبت من أي عملة من عملات الأرض ... أنتم «السند» القوي الذي لا يهبط سعره أبدًا في سوق ... ويدفع «الفائدة» في الميعاد!

لو عقلت الشعوب لأدركتُ أن «الفن» مهما يُبَدَّلُ فيه هو أقل الموارد القومية نفقةً وأكثرها إدرارًا للربح!

هذا هو ما يُسمُّونه جنون التبذير في التُّحف والفنون عند الدول! أما النوع الثاني من الجنون وأعني به جنون المُقامرة والمغامرة ... فيتمثل عند الدول في الحروب. الحرب هي قمار الدولة ... إن جبال الذهب التي تبتلعها هذه «الموائد الخضراء» أو على الأصح «الميادين الحمراء» لا يمكن أن تقف عند حدٍّ، ولا يمكن أن يبقى لها أثر ... لا للمهزوم ولا للمنتصر!

أين انتصارات رمسيس الثاني وفتوحه في الشرق والجنوب؟
أين انتصارات نابليون وفتوحه في أوروبا؟
أموالٌ أنْفِقت ودماء استنزفت ابتلعتهما كلها «الميادين الحمراء» ولم تترك للورثة بعددٍ مَورِدًا يطعمهم في الأيام السوداء!
لكن ... يا للعجب! جنون الفن هو الذي يسخر الناس دائماً منه وهو كنزهم الذي فيه لهم ولأبنائهم مجد ومورد وطعام.
وجنون القمار هو الذي يغضون عنه أو يهلّلون له وهو جحيمهم الذي فيه لهم فناء ولأبنائهم هباء.

(أخبار اليوم ١ أكتوبر ١٩٤٩م)

كومبارس مسرحيتي من الرهبان

مرة أخرى يُتاح لي أن أشاهد إحدى مسرحياتي تُمثَّل خارج مصر في لغة أجنبية. والمسرحية هذه المرة هي «أهل الكهف» واللغة هي الإيطالية، والمدينة هي «بالرمو» والجمهور هذه المرة أيضًا كان جمهورًا دوليًا، ضم الإيطالي والفرنسي والأسباني واليوناني والعربي وغيرهم من أبناء الدول المشتركة في المؤتمر الذي عُقدَ هذا الأسبوع في هذه المدينة لدراسة شئون البحر الأبيض المتوسط. كما ضم الوافدين من كل جهة لحضور المعرض الصناعي الفني القائم في تلك الفترة.

وكان الجوُّ لطيفًا في هذه المدينة التي تحيط بها الجبال المكسوة بالخضرة وكان الفندق الذي نزلت فيه ضيفًا على الحكومة الإيطالية، قصرًا منيفًا من القصور القديمة يشرف على البحر. كدت أفتح نافذتي في المساء عند الغروب على حديقته، حتى أخذتني الروعة بل وبعض الروع، فقد رأيت الماء الأزرق يكاد يعبث بأقدام النخيل المشوقة كالرماح العربية، وإلى جانبها أشجار الصنوبر البحرية، داكنة كرهوس الحبشان، وحولها الأزهار البرية تنشر أريجها ممزوجًا بعطر الليمون المزهر فوق شجره المثمر في حجم البيض ولون الكهرمان، منظر لا يُوصَفُ بالنثر، لأنه هو الشعر والسحر بغير كلام ولا شعوضة، ثم أخذتني هزة خوف، فقد لمحتُ فجأةً بين الأشجار أجسامًا تتحرك على غلاثل رقاق، ليست قِطْعًا أجسام بشر؛ لأنها تطير في الهواء. قلت في نفسي: هذا قصر قديم، والمكان ساحر أو ربما مسحور، أو قُدِّر لي هكذا أن أرى الأرواح رؤية العين تهيم في الحديقة قبل أن يدخل الليل؟! وكيف أستطيع بعد ذلك المبيت وحدي في حجرتي طول ليلتي؟

ولكن الله لطف بي وبغربتي، فقد تَبَيَّن لي بعد قليل أن الغلاثل الرقاق المتحركة كالأجسام في الظلام ليست سوى دخان سيجارة أحد النزلاء في الحديقة، هذا الدخان العادي كان يتماوج بين الأشجار الداكنة مُتخذًا من الأشكال ما يشبه أرواح الأساطير

أو عرائس المروج ... هكذا يلعب الخيال أحياناً برعوس الناس في بعض الأمكنة وبعض الظروف.

ولكن السحر الأعظم هو المكان الذي مُنِّت فيه المسرحية لم تكن المسارح المغلقة — على كثرتها وفخامتها في المدينة — صالحة في حر الصيف، فكان من الأنسب التمثيل في الهواء الطلق، وليس هذا بالغريب، فمسرحية (فوست) لشاعر ألمانيا (جوته) تُعْرَضُ كل صيف في الهواء الطلق، ولكن الطريف حقاً هو اختيار الموقع، لقد اختاروا لأهل الكهف موقعاً من أهم المواقع الأثرية في تلك البلاد، هو دير «مونريالي» ... ذلك الدير المُشِيد على الطراز البيزنطي العربي النورماندي، فالعرب في مجدهم قد جاءوا إلى تلك البقعة من الأرض وأثروا فيها وتأثروا، وأهل الكهف — كما هو معلوم — ورد ذكرهم في القرآن الكريم ... فقد هربوا بدينهم المسيحي من ذلك الوثني الأمر بالمجزرة، واعتصموا بكهف ناموا فيه إلى أن استيقظوا بعد ثلاثة قرون في عهد ملك مؤمن بدين المسيح. فعُرِضَ هذه القصة في دير، فكرة تدل على فهم وذوق، لا لأن التمثيل في الدير أمر غريب في أوروبا، على العكس، إن خير التمثيل ما نشأ في رحبات المعابد، وإلى يومنا هذا تعرض مسرحية (يدرمان) لشاعر النمسا (هوفمانستال) كل صيف بسالزبورج أمام كاتدرائية سان بيتر. بل إن مسرحية شاعر فرنسا بول كلوديل عن (مريم) تُمَثَّلُ هذا الأسبوع بالذات في دير (سان سيفيران)، ولكن الغريب في أمر «أهل الكهف» هو اختيار الدير ذي الطابع العربي المسيحي ... ما من إطار يصلح حقاً لروح هذه القصة مثل هذا الإطار الفريد، ولقد بُدِّلَ في إخراجها من العناية ما أثر في نفسي، فقد قيلَ لي: إن إعدادها تم تحت الإشراف المباشر للسنيور «بيترو كاستليا» القائم هناك بأعمال وزير المعارف، والواقع أن أبرز مظهرين للفن في بالرمو إبان المعرض والمؤتمر هما: وجود الموسيقى المشهور (بيير مونتيه) آتياً من أمريكا ليعرض مع فرقته بعض آثار بتهوفن وفردري، ثم عرض مسرحية «أهل الكهف». غير أنني شعرتُ أن الاهتمام العام بالمسرحية من الجمهور والسلطات كان في المحل الأول. وجاءت ساعة التمثيل وامتلأت رحبة الدير بالمشاهدين ... تلك الرحبة المفروشة بالعشب والزهر، تحيط بها الأروقة ذوات الأعمدة العربية النورماندية.

وسلّطت الأنوار الكشافاة على منظر كهف، هُيئَ في فجوة بين عمودين. وظهر أهل الكهف الثلاثة نائمين ... ثم ... ثم بدأت مفاجأة لم أتوقَّعها: جوقة من راقصات الباليه يتحرَّكن حركات توقيعية على أنغام موسيقى خفيّة، وكأنهن يُمثِّلن الأحلام التي عَمَّرت رعوس النائمين طيلة المئات من الأعوام. ثم اختفت هذه الأحلام باستيقاظ النائمين الثلاثة،

وبدأ الكلام بينهن بالإيطالية التي لا أفهم منها حرفاً، وحدث لي هنا ما حدث لي في سالزبورج يوم مُثِّلت «بجماليون» بالألمانية. اكتفيتُ مِنَ المُشَاهَدة بقراءة ما يبدو على وجوه الحاضرين الفاهمين من أثر. وإنها لتجربة ممتعة حقاً، تستحق ما بذُلْتُ من متاعب السفر، أن أعرف روايتي، لا من سطور كتاب، بل من المسطور في وجوه الناس من مختلف الأجناس!

وجاء الفصل الثاني، ثم الثالث. وحوادثهما تدور في بَهْو القصر ذي الأعمدة. ولم يكن هنا من حاجة إلى «ديكور» فأعمدة الدير الحقيقية كانت أفخم من كل تزييف مسرحي وتزويق. وظهرت بطلة القصة «بريسكا» تقوم بتمثيلها ممثلة السينما والمسرح الإيطالية «نيدا نالدي» ففهمتُ لأول مرة مَنْ هي «بريسكا» وما كُنْه الحب الذي ماتت به. وعندما قامت صائحة على جثة حبيبها الذي لفظ أنفاسه حينما وافته السعادة، خُيِّلَ إليَّ أنني أمام مشهد «موت إيزولت» في أوبرا «فاجنر» المشهورة ... كانت «نيدا نالدي» تتكلم على أنغام موسيقى غير منظورة كلاماً خِلْتُه غناءً. وكان إلى جانبي أحد رجال الدولة الإيطاليين، فهمس في أذني: «ما أصلح هذه المسرحية أن يُصنَّع منها أوبرا!»

يا للعجب ... نفس هذه العبارة سمعْتُها في سالزبورج من الموسيقي النمساوي «بومجارتنر» وهو يشاهد «بجماليون»! ما علاقة مسرحياتي بالموسيقى؟ لست أدري

...

ولكن أعجب ما حدث في تمثيل: «أهل الكهف» ... بل أعجب ما حدث في تمثيل مسرحية على الإطلاق إلى يومنا هذا هو أن أجراس الدير دَقَّت للصلاة في اللحظة التي دار فيها الحديث بين أهل الكهف عن الإيمان والدين ومجد المسيح. وسمع الجمهور من بعيد تراويل الرهبان آتية من داخل الدير كما لو كانوا «كومبارس» في أوبرا أو مسرحية.

وما من شك أن هذا لم يكن مقصوداً. فمَهْمَا يَكُنْ من أمر الاهتمام بالرواية، فليس من المعقول أن يسمح دير عظيم كبير «مونريالي» باستخدام رهبانه على هيئة «كومبارس» في رواية من الروايات!

ولكن الرهبان كانوا في أعماق ديرهم، لا يشعرون فيما أظن بما يجري خارجه من تمثيل ... وكانوا يرتلون صلاتهم حقاً ويدقون أجراسهم حقاً، وهم لا يعلمون أنهم يساهمون بذلك في الإخراج، ويشاركون في التمثيل، مُساهمة فعَّالة ومُشاركة رائعة! لقد كانت أصوات ترتيلهم تصل إلى آذاننا خافتة هامسة عميقة جلييلة، لا تطغى على حوار الممثلين، ولا تصرف الأذهان عن مجرى القصة ... كانت عنصرًا مصاحبًا يساير

المسرحية بمقدار، ويماشيها باتساق، كأن مخرجًا بارعًا أنفق الجهد وفتق الحيلة لينظمها هذا التنظيم!

ولكن الحقيقة امتزجت بالخيال، والواقع اختلط بالفن، في لحظة نادرة من لحظات المصادفات العجيبة. فكان التأثير بالغًا. ونجحت الرواية.

وجاء مَنْ يقول إن النِّية متجهة إلى إعادة إخراجها على أحد مسارح روما في الشتاء القادم ... فصَحَّتْ من فوري: والكومبارس؟!

حقًا ... هذا الكومبارس ... أين نجد مثله في روما أو في أي مسرح على وجه البسيطة! هذا الكومبارس المستتر الأمين الذي حسب أنه يعمل خالصًا مخلصًا لوجه الله ... فإذا هو يعمل أيضًا ببراءة فائقة — من حيث لا يدري — لوجه الفن ولوجه: بالرمو (إيطاليا).

(آخر ساعة ١٦ يونية ١٩٥٤م)

أشخاص رواياتي يطالبونني بإطعامهم

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لَجُّوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

صورة عجيبة من صور القرآن الكريم، كلما تأملتُها أخذني العجب. هذه الأعضاء التي نحسبها قطعاً منّا خاضعة لنا يمكن أن تنقلب يوماً بأمر الله أشخاصاً منفصلة عنا، تحاسبنا وتشهد علينا! ... من هذا القبيل أيضاً مخلوقات الكاتب التي تخرج من رأسه ... ماذا يكون الحال لو أن الله أمرها أن تنقلب أشخاصاً حية، تسعى إلى صاحبها تحاسبه وتطالبه؟!

تخيّلُ هذه الفكرة ... وتصورُ الله تعالى يريد أن ينزل نقمته بمؤلف، يفاخر بأشخاصه الأحياء في الكتب كما يزعم. فينفخ فيهم الروح وينهضهم أحياء على الأرض حقيقة، ويدفعهم إلى مؤلّفهم يسألونه أن يرزقهم!

تملّكتُ نفسي عندئذٍ في موقف ذلك المؤلّف المسكين ... وطفقتُ أحصي عدداً أشخاص قصصي، أحصيتهم لأول مرة فإذا هم يبلغون الثلاثمائة عدداً ... فيهم الملوك والوزراء والأطباء والمحامون والمهندسون والصوص والشحاذون والخدم والمتسولون ... إلخ.

لو أنني تعرضت لغضب الله فأحيا هؤلاء فما أشعر ذات يوم إلا وثلاثمائة شخص، يبحثون عني، ويطرقون بابي، ويطلبون مقابلتي ... ماذا يكون موقعي؟

سأذعر من غير شكّ ولكن المسألة ستزداد حرجاً عندما يقولون لي: ربّ لنا أمور

معاشنا!

- أنا أُرَتِّبُ لكم معاشكم؟! -
- ومن غيرك يصنع لنا ذلك؟ ألسنا مخلوقات؟!
- مخلوقاتي؟ هذا صحيح ... ولكن ...
- نحن جائعون ... نريد أن نأكل أليس عندك طعام؟
- طعام؟ لثلاثمائة شخص؟! من ذا يستطيع أن يملأ بطونكم هكذا دفعة واحدة؟!
- ولا مطاعم الشعب!
- وما العمل؟ نحن الآن جائعون!
- وما دخلي أنا؟
- أنت الذي أوجدتَنا!
- يا للمصيبة!
- أعطنا نقودًا ... وكلُّ منا يشتري الطعام الذي يحلو له ... أليس معك نقود ... ذهب ... فضة؟!
- ذهب فضة ...؟! أنا أُوزَّع عليكم ذلك ... وأنتم جيش جرار؟ أنظنون أنني جالس على خزائن الدولة!
- ابحث لنا إذن عن أعمال! ضَعْنَا في أعمالنا ووظائفنا ونحن ندبر أمورنا!
- ووظائفكم وأعمالكم؟ ماذا تقصدون؟
- الملوك منا ضَعُّهُمْ على عروشهم، والوزراء في مناصبهم ... والأطباء والمهندسون والمدرسون كل في عمله ...
- ما شاء الله! أين هي العروش والمناصب التي أستطيع أنا أن أضع فيها حضراتكم!
- وما الذي تراه لنا الآن؟
- لا شيء ... أن تتركوني وشأني ... وتعودوا من حيث جئتم.
- هذا مستحيل ... نحن الآن أشخاص أحياء ... ولا نعرف ... في هذه الدنيا أحدًا غيرك ... أنت المسئول عنا وعن رزقنا.
- ما هذه الكارثة يا ربي! ... لو كنتم واحدًا أو اثنين أو ثلاثة لتحملتكم وأمري إلى الله ... ولكنكم جيش ... جيش ... آه. ما أسعدك يا من لم تُؤَلَّفَ غير كتاب واحد!
- أسرِعْ ودبِّر لنا الرزق. نحن جائعون!
- لا شك أن هذا نوع من الجحيم للمؤلفين ... كما أن شهادة السمع والبصر والجلد نوع من العقاب للكافرين.

- نحن جائعون ... نحن جائعون!
- صه! أتريدون أن تأكلوا؟
- نعم ... نعم ... نعم.
- لا توجد غير طريقة واحدة: الأطباء منكم والمحامون والمهندسون والمدرسون ... ربما وجدتُ لهم أعمالاً ... أمّا الملوك والوزراء والعظماء والمتشرّدون والمتسوّلون، فلا أمل في إطعامهم إلا من إتاوة يدفعها مَنْ وجد عملاً ... رضىتم بهذا الحل؟
- رضينا.
- بقي شرط ... ما مصلحتي أنا ... في أن أتعشّم المتاعب في سبيل رزقكم؟! ماذا تصنعون لي في مقابل تدبيري لأموركم؟
- نسبح بحمدك!
- كلّاً يا حضرات الأفاضل! أنا لا أطمع في الحمد ولا الثناء ... ولكنني أطمع في أن تُسوّني بالمتشرّدين والمتسوّلين والعظماء والوزراء ... أي تدفعوا لي إتاوة عن كل رأس يعمل.
- لك ذلك ... نحن مخلوقاتك. شغلّنا وخُذ ما شئتَ من أجرنا!
- افرضوا أني لم أجد لكم اليوم في زحمة الحياة الحديثة أعمالاً محترمة ... ما المانع في أن أنتفع بعددكم الكبير وأؤجركم جملة.
- تؤجرنا؟
- أنفأراً في ترحيلة جمع الدودة أو جني القطن، أو نقاوة الأرز، أو حصد القمح!
- نحن أصحاب المناصب العظيمة والمؤهّلات الباهرة والمواقف البارعة.
- هذا كلام أنا الذي قلّته: في ساعة طيش ولحظة خيال ... ولكنكم الآن أجسام حية تريد أن تأكل، أتريدون أن تأكلوا أو لا تريدون؟
- نريد أن نأكل.
- إذن انسوا الماضي ... ودعوني أشغلّكم في أي عمل ... وأؤجركم بأي أجر!
- أجرنا!
- ولى الإتاوة؟
- ولك الإتاوة!
- اتفقنا ... هذا عمل لا بأس به ... لو عرفتم مشقة التأليف وقلة انتشار الفكر لأيقنتم أن تأجيركم أنفأراً في الحقل، قد يربح أكثر من بيعكم كتباً!

إذا وقع الأمر حقًا على هذا النحو الذي هيأه لي خيالي، لما كان في الأمر ضرر ... إني مستعد أن أرزق وأرتزق من هذه المخلوقات! ولكن من يضمن لي أن المسألة بهذه السهولة، وأنهم سيطيعون ويدفعون إلى النهاية، خير لي أن أسأل الله أن يكفيني شرمهم، وأن يقصيه عنني، ولا يعرفهم عنواني!

(أخبار اليوم ٦ أغسطس ١٩٤٩م)

الجاحظ ينظر إلينا

قلما يحتفظ الإنسان بشيء من آثار الصبا ... فإذا عثر على أثر من تلك الآثار، وقد خطه الشيب، كان لذلك في نفسه أجمل الموقع، وإني لكثرة التنقل في الحياة، وبعد المشقة في الزمن، قد فقدتُ كثيرًا من آثار صباي.

ولكنني عجتُ ذات يوم، وقد وقع في يدي كتاب لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ... كُتِبَ على جلده اسمي فوق عبارة: «سنة أولى فصل أول» بخطي الذي كان لي في ذلك الوقت ... وما رأيت أنه مختلف كثيرًا عن خطي في هذه الأيام، فَرِحْتُ بذلك الأثر ورجعت بفكري القهقري، وأنا أتساءل: أحقًا كنا نقرأ الجاحظ في مثل تلك السن؟! أغلب الظن أن هذا الكتاب لم يكن من مُقرَّرات المدارس في ذلك العهد إنما هو نوع من المطالعات الخاصة التي كنا نغرق فيها خارج الدرس ... ذلك أني لم أنس صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي كنتُ أقرؤه كثيرًا في ذلك الحين مع ما كنتُ أقرأ من آثار الأدب القديم. والحق أن الجاحظ وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام هو الأستاذ المباشر لأكثر زعماء القلم في الأدب العربي المعاصر ... لأنه رفع عَلمَ التجديد وعَلمَ الكتاب.

إن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر، لا وشي من اللغو، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو، وإني لَمُوقِنٌ أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر، لما أنكر كثيرًا من الأساليب التي ينشئ بها كُتَّاب اليوم أفكارهم ... بل إنه لفرط صدقه في تصوير نفسه وعصره، وصراحته في التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفي الناس.

قد لا يرى إلا تغييرًا يسيرًا في المحيط الأدبي.

بل في كل مكان وزمان، يوجد به أدب وأدباء، وكُتَّاب ومؤلفون.

وَلَنَسْتَمِعَ إِلَيْهِ إِذْ يَقُولُ بِلُغَتِهِ الَّتِي كَانَ يَكْتُبُ بِهَا مِنْذُ عَشْرَةِ قُرُونٍ «... إِنِّي رُبَّمَا أَلْفَتُ الْكِتَابَ الْمُحْكَمَ الْمُتَقَنَّ فِي الدِّينِ وَالْفِقْهِ وَالرِّسَالِ وَالسِّيَرَةِ وَالْخُطْبِ وَالْخَرَجِ وَالْأَحْكَامِ وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ... وَأَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِي ... فَيَتَوَاطَأُ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، بِالْحَسَدِ الْمُرْكَبِ فِيهِمْ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ مُؤَلَّفًا لِمَلِكٍ، مَعَهُ الْمَقْدَرَةُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالْحُطُّ وَالرَّفْعُ، وَالتَّرْهِيْبُ وَالتَّرْغِيْبُ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاكَ الْإِبْلِ الْمُغْتَلَمَةِ، فَإِنْ أَمَكَّنْتَهُمُ الْحِيلَةَ مِنْ إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلِّفَ لَهُ، فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ وَأَرَادُوهُ ... وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلِّفُ لَهُ الْكِتَابَ نَحْرِيًّا نَقَابًا وَحَادِقًا فَطِنًا وَأَعْجَزْتَهُمُ الْحِيلَةَ ... سَرَقُوا مَعَانِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْفَوْا مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَابًا، أَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ... وَهُمْ قَدْ دُمُّوهُ وَتَلَبَّوهُ لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوبًا إِلَيَّ وَمُوسَمًا بِي ... وَرُبَّمَا أَلْفَتُ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ دُونَهُ فِي مَعَانِيهِ وَأَلْفَظِهِ، فَأَتَرَجَمُهُ بِاسْمِ غَيْرِي وَأَحِيلُهُ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ نِي عَصْرِهِ مِثْلَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ ... فَيَأْتِيْنِي أَوْلَئِكَ الْقَوْمُ الطَّاعِنُونَ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ أَحْكَمَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ؛ لِاسْتِنْسَاخِهِ وَقِرَاءَتِهِ عَلَيَّ، وَيَكْتُبُونَهُ بِخُطُوطِهِمْ وَيَصَيِّرُونَهُ إِمَامًا يَقْتَدُونَ بِهِ ... وَيَسْتَعْمَلُونَ أَلْفَظَهُ وَمَعَانِيهِ فِي كُتُبِهِمْ وَخَطَابَاتِهِمْ ... لِأَنَّهُ لَمْ يُتَرَجَمْ بِاسْمِي، وَلَمْ يُنَسَبْ إِلَيَّ تَأْلِيْفِي ...» إلخ.

ما الذي تغيَّرَ اليوم من هذه الصورة، وما الذي بقي؟ ما من ريب في أن الغرائز البشرية التي وصفها «الجاحظ» لا سبيل إلى زوالها ... أما ذلك السيد أو العظيم الذي كان يحث الأدباء على التأليف، ويرغبهم فيه بالمكافأة والرفع والتقديم، فقد اختفى ظله وحل محله سادة وعظماء لا يقرءون ولا يكافئون، ولكنهم ينفقون المال على جِيَادِ السِّبَاقِ، ويحيون الليل على موائد القمار، ويُهْدُون الحليَّ والجواهر إلى راقصات الملاهي ومُطَرِّباتِ الخدور ... كان العلم فيما مضى زينة للسيد، ولؤلؤة في رأسه، ومزينة يسمو بها على تابعه ... فإذا الجهل اليوم غمرة تطوي السيد مع تابعه، وسلسلة تربط الرءوس بالأقدام وإذا الجميع كتلة حالكة في درك واحد من الإدراك.

لقد استولت على النفوس جميعًا روح الاستهانة بالمثل العليا ... وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة ... ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم أو يتوفر على فن ... إنما الكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة! ودَبَّ هذا الروح في شباب فلم يعد لهم جَلَدٌ على درس، أو صبر على كدح اليوم ... لا ينظرون إلى الجهد الذي يجب أن يبذل ... ولكنهم يبصرون المراتب التي يجب أن يرقوا إليها. لا يريدون أن يضيعوا وقتًا في الغرس البطيء، والإعداد الطويل ولكنهم يريدون ثمرة غرس الآخرين، عَجَلِينَ مُتَلَهِّفِينَ! لذلك قلَّ

الجاحظ ينظر إلينا

الاطلاع المعمق، وندرت القراءة المجدية، وكَسَدَتِ الكتبُ القِيَمَةَ فاخْتَلَّتْ الموازين وفسدت القيم!

ذلك هو عصر «الجهل الشامل» الذي نعيش فيه ... وما أرى الجاحظ إلا راضيًا عن نفسه قانعًا بمصيره، لو أُتِيحَ له أن ينظر إلينا اليوم من غابر زمانه.

(أخبار اليوم ١٩٤٨/٢/٢١ م)

حطم بيت الزجاج

يمنعني والذي من قراءة المجلات والجرائد على اختلاف أنواعها. ولا يَقْبَلُ مُناقشة في فائدة القراءة والاطلاع، وكلما أبصر في يدي مجلة مرَّقها ... وهو ينهاني عن مُصادقة أي شابٍ حتى وإن كان مثقَّفًا، وهو يرتاب في حركاتي وسكناتي، ويخاف عليَّ ... وهو يريدني أن أعيش كعابد في صومعة ... لا يراني الناس ولا أراهم ... إني مشغوف بالقراءة، فماذا أصنع لأرضي هوايتي وأرضي في عين الوقت والذي الذي أكنُّ له كل احترام.

هذا والد يريد أن يربي ولده كما يُربَّى ذلك النوع من الزهر في بيوت الزجاج ... وأنا لست من علماء التربية للبشر أو للزهر حتى أبتَّ في هذا الأمر. ولكنني أعتقد أن كل كائن إنساني أو نباتي لا يتعرض للشمس والهواء والرياح والغبار، ينشأ رقيق التكوين ضعيف البنیان، يحتاج إلى دثار من العناية ليحيا، وإلى جدران من الحيطه ليعيش، ويكفي أن تُحدِث المصادفة في تلك الدروع ثغرة ذات يوم لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأولى ... كَلَّا ... أيها الوالد الخائف ... ليس هذا هو السبيل، حطَّم بيت الزجاج وأخرج زهرتك، وعَرَضُها برفق للشمس والهواء ... دَعْ ولدك يقرأ، ودَعْه يصادق، ودعه يعيش ربيعه.

لا تخش لون القراءة التي يُشغَف به ابنك في هذه السن المبكرة . إِنَّ الطبيعة أعقل منك أيها الوالد، إنها هي التي تَغرَس الميول في النفوس، وتَلَوِّثُها حسب الأسنان والأعمار، كما تلون أوراق الأشجار.

ففي الشباب يورق الخيال والشعور والعاطفة. وفي الكهولة يورق العقل والحكمة والتجارب. ومن الخطأ أن يَتَحَدَّى والد الطبيعة وأن يتغلب بغرسه على غرسها. وأن يطلب في ربيع العمر شجرًا قاتم الجذع صلب العود تحت عصف الرياح وصفير النوء.

ولكنها فيما يظهر قصة كل والد: إنه يحكم عليه بمزاجه ويقيس درجة حرارته «بترمومتره» ... وكأنه لا يستطيع له فهمًا ... لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع. فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر، فوق الغصون اللينة المخضرة، ويهزأ من طيره الصاح ومن ليله المُقَمَّر، ومن نسيمه المعطر ... ومن كل تلك الرقة التي يملأ بها الدنيا ذلك فصل الرقيق ... إنها في نظر الشتاء الصارم، ضعف ... لأنه فصل العنف تصطرع فيه العناصر، وتتعارك القوى، إنه الحياة في كفاحها الأكبر.

أنا أيضًا وقفتُ هذا الموقف من والدي رحمه الله، وأنا في الثانية عشرة من عمري ... كنتُ أُرهب أيام الجُمُع. لأنها الأيام التي يفرغ فيها لي، يناقشني فيما أقرأ، وكان يتخير لي هو نوع الكتب التي يجب أن أقرأها ... وكان أخفها وطأة كتاب يحيوي «المعلقات السبع» ضُربتُ بسببه أوجع الضرب ... فقد كان والدي لا يكتفي مِنِّي بالحفظ عن ظهر قلب، بل يريد مني أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلي في تلك السن! وكنتُ إذا عجزتُ عَجِب لجهلي وحمقي، ثم استشاط غيظًا مِنِّي، مدفوعًا ولا ريب بالخشية على مستقبلتي الضائع، وإذا يده تتناول وجهي بالصفع الثقيل، فلا تتركني حتى يسيل الدم من أنفي وهو يصيح بي:

– يا جاهل! يا غبي! أُوْجَد أسهل من هذا البيت لزهير بن أبي سُلمى! هذا السهل الممتنع يا أحمق!

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضْرَسَ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسَمٍ

ثم يهز رأسه إعجابًا بالحكمة التي ينطوي عليها هذا الشعر ... حقًا هذا شعر خليق أن يُقدَّره والدي الذي حنَّه الدهر وعرف من تجاربه حقيقة كل كلمة في هذا البيت، ولكن الذي يدهشني الآن هو: كيف غاب عن والدي وقتئذٍ أن مثل هذا البيت لا يمكن أن يتصور حقيقته ذَهْنُ غلام في الثانية عشرة؟!

أُتَرَى كان المقصود أن أشرح البيت شرحًا محفوظًا كما ألقاه إلقاءً محفوظًا؟! وما قيمة ذلك؟ إن هذا لا يرفعني عن الببغاء إلا مرتبة بسيطة! ولكن المقصود فيما أعتقد أن يشرح الإنسان المعاني شرحًا محسوسًا بكل شعوره وكل إدراكه، وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر ... في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يُطَلَّب إلى غلام أو شاب أن يُفسَّر إلا ما تستطيع تجارب سنَّه أن تُلِّمَّ به من مدارك وإحساسات.

من أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب ... الكذب على نفسه وعلى غيره بتلقيه تفسيرات «موضوعة» لأشياء لا تدركها سنه. لهذا أيضًا يحسن بالوالد والمدرسة تمكين الصبي أو الشاب من قراءة ما يناسب سنه من ألوان القراءات. ولا تقلق أيها الوالد، ولا تظن ابنك، وهو اليوم غارق في المطالعات التافهة اليسيرة، سائرًا منساقًا في تيارها إلى آخر العمر. إن تيار الحياة هو الذي يُغيّر لون المطالعات. وأنت نفسك أيها الوالد الذي تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد، أو تُعنى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو بعلم الرياضة ... كنت في صباك شغوفًا بقصص روكامبول أو أبي زيد الهلالي ... ولكنك لا تذكر ذلك العهد كأغلب الآباء، ويُخَيِّلُ إليك أنك لم تقرأ قصة قُطُّ، لأن تيار حياتك اليوم دفعك في مجرى بعيد عن حياة الخيال، وبدا لك عقلك وكأنه لم يَعد يطيق هضم القصص. أيها الوالد ... اتركْ ولدك لِسَنِّه. ولا تضعه في بيت من زجاج.

(أخبار اليوم ٢٢/٣/١٩٤٧م)

ناشئون حائرون

أنا شابٌ طَمُوحٌ جدًّا وكسولٌ جدًّا، أحب الراحة، وبينني وبين الجمود عدااء. أحب الهناء وأحب المال، وأحب فوق كل هذا الفن. خُلِقْتُ هكذا فلا تلمني ... بل أنت خَلِيق أن تعذرني ... ثقافتني المدرسية لم تكن عالية جدًّا ... إذ إنها تنحصر في الدراسة الثانوية المصرية ثم دراسة إنجليزية محضّة في كلية سان جورج، ولكن الثقافة التي اكتسبتها من مطالعاتي الشخصية كانت في يوم من الأيام عالية جدًّا إلى حدِّ يحسدني عليه أقراني ... كل شيء كان يؤهلني للفن، لكن وقع ما لم يكن في الحساب: كان هذا من نحو عام ونصف في ليلة شتوية باردة ... إذ عرفتُ امرأةً أوروبيةً غنيّةً ... عرضت عليّ المال والجاه لأعيش بجوارها ... فحملني طموحي وكسلي على القبول، حاسبًا بهذا أنني مستطيع بلوغ ما أتمنى، فالمال يساعدني على اقتناء الكتب والقدرة على السفر، والراحة تُيسِّر لي فرص القراءة والكتابة، والانصراف إلى فنِّي ... ولكن عكس ذلك هو الذي حدث ... فإن هذه المرأة صرفتني عن الكتب والورق ... ومرة العام دون أن أفتح كتابًا أو أكتب حرفًا ... لأن الكتابة والقراءة تضايقناها ... إلى أن كان أمس إذ غافلتُها وفتحتُ كتابًا لك اشترَيْتُهُ هو «زهرة العمر» ... لقد شعرتُ بروحي تتصاعد من جديد إلى السماء ... شعرتُ بأنه يجب أن أترك حياتي هذه ... ولكن إلى أين أذهب؟

اذهب ما دمت شابًّا فردًّا طليقًا إلى أيِّ مكان تستطيع أن تنقطع فيه إلى الفن ... اكسب اللقمة من عرق الجبين، إن طريق الفن ليس هيئًا ... إنه يتطلب منك، كما رأيت في «زهرة العمر»، أن تضحي من أجله شبابك كله، ولكنك فيما تقول شابٌّ كسول وطموح في عين الوقت ... وتلك مع الأسف علاقة لا تدمغك وحدك بل تدمغ كثيرين من شباب جيلك الجديد! هذا الشباب الذي يريد أن ينال، ولا يريد أن يعمل. فهو في الجامعة لا همٌّ له إلا المطالبة باختصار البرامج، وزيادة الملاحق، والحصول على ورقة يطرق بها باب

الحياة، منتظرًا أن يُفْتَحَ له في الحال على مصراعيه ... فإذا قَسَتْ عليه الحياة قليلًا ضَجَّ وصخب وبكى واشتكى.

هذا الشباب العاجز جعل كل بضاعته الكلام والشكوى والاتهام ... ولكنَّ هنالك إلى جانب هذه الطائفة نوعًا آخر من شباب الجيل الجديد، سار في الطريق الحق ... وأدرك أن العمل وحده هو الذي يوصله إلى المجد ... فانكبَّ على الدرس انكبًّا عميقًا وانقطع للعمل انقطاعًا طويلًا ... ونظر مليًّا في تلك الآثار التي خَلَفَهَا من سبقوه ... ومشى في السبل التي شَقَّوْهَا، والطرق التي عَبَّدَها له ومهدوها ... فأنتج هذه الألوان من الفن ... مما تطالعنا به الكتب والصحف ... يقرؤها الناس اليوم ويذكرون بالخير أسماء أصحابها الشُّبَّان الجدد!

هذا الشباب العامل هو الذي اعتمد على بضاعة من خلقه وإنتاجه فأين تريد أن يكون موضعك من هاتين الطائفتين؟ ... قلت: إنَّكَ كسول طَمُوح ... والكسل في سِنِّكَ جريمة! أنت الآن في مرحلة الفورة الأولى والوحي المتدفِّق، وعندما يَبْيَضُ شَعْرُكَ سيرغمك فنُّكَ على التريث في الإنتاج.

لا بد من أن تعمل الآن كثيرًا ... إن الفن لن يرضى منك بأقل من شبابك كله ثمنًا ... كلنا قد دفعنا هذا الثمن وعرفنا كيف ننكبُّ على الورق أكثر من عشر ساعات في اليوم ... أكثر من ربع قرن! وإلا فكيف أخرجنا هذه الثلاثين من المجلدات التي تقرأها أنت وأقرانك اليوم، فتوفر عليكم كثيرًا من جهد كان لا بد منه لإقرار ما تراه من قوالب الفن، تحمِّلُناه نحن عنكم ... وبذلنا فيه من أجلكم شبابنا الذي ذهب ... ولو عرفتم ما ذقناه في زهرة عمرنا من حرمان وما قاسيناه من مَشَقَّة ... لهالكم صبرنا ... وربما اتهمتمونا بالغفلة ... وقُلْتُم فيم كان ذلك الجهد؟ ... وماذا كانت النتيجة؟ لا شيء إلا أننا نعيش لنكتب للناس أشياء قد تُصْلِح من أمرهم، ونكتب لنعين الأجيال الجديدة من أمثالكم على أن تبلغوا في الفن ما لم نستطع نحن أن نبْلِغُه. وإن مدادنا لَفِي دمكم دون أن تشعروا ... وكتبنا معابر لكم وجسور دون أن تذكروا ... وإن لم نفعل غير ذلك لكفى به من واجب أدِّيناه نحوكم ... وعليكم أنتم الباقي ... فامضوا قُدَمًا ولا تُضَيِّعُوا وقتكم هباء! أما جزاؤنا الماديُّ على ذلك فليس أكثر من كسب لقمتنا بشرف.

والأدب في بلادنا لا يمنح حتى الآن أكثر من اللقمة على شرط أن تعمل في الصحف ... أما جزاؤنا الروحي فلن نناله منكم ... لأنكم إذا أخفقتم انهلتم علينا سبًّا وحملُتمونا التَّبِعَة ... وإذا نجحتم ... ما حفلتم أن تبشرونا بهذا النجاح! ... ونحن في حقيقة الأمر

لا نطمع منكم في شيء إلا أن تخرجوا قليلاً بين آنٍ وأنٍ من طيش سنكم ... ولتبرخوا واجبكم وتذكروا أن الخلق وحده ... الخلق لا الشكوى والإنتاج لا الاتهام ... والعمل لا الكسل ... هي كلها دعامتكم في مستهل حياتكم!

وهذا شابٌ آخر يتهمنا نحن بالكسل:

ما بال أكثر أساتذتنا من كبار الأدباء قد انصرفوا عن الإنتاج الأدبي إلى هذا النوع من الكتابة الصحفية؟ ... أين كُتبتكم؟ ولماذا انقطعتكم عن نشر الكتب خصوصاً أنت والأستاذ المازني؟... أهو الكسل؟ أهذه خاتمة مطافكم؟ أنستطيع أن نودّعكم في ذمة الله والتاريخ؟!.

ليس من حقي أن أجيب هنا عن الصديق الأستاذ المازني فأغلب ظني أنه قد سُئل مثل هذا السؤال من قبل وأجاب عنه، ولكني أجيب هذا الشاب، بأننا لا نستطيع أن نكسل، لسبب بسيط وهو أننا مضطرون إلى العمل ... ففي أعناقنا تبعات. أما انقطاعنا عن الإنتاج الأدبي والفني فليس بالخطورة التي تتوهمها ... لقد انقطع «بول فاليري» عن فنه عشرين عاماً، شغل نفسه أثناءها بأعمال أخرى ... في حين أن آخر ما نشرناه نحن من كتب لم تمض عليه ثلاث سنوات.

ومن يراجع فهرس الكتب لأدباء العالم وتواريخها يجد أحياناً فترات صمت بين كتاب وكتاب قد تصل إلى سبعة أعوام وأكثر ... فلا يعجب هناك أحد لهذا الانقطاع فينهض يُولول وينتحب ويلحق هؤلاء الأدباء بالأموات ويستنزل عليهم الرحمات! فهم هناك يعلمون أن الفن ليس عملاً منتظماً يُستطاع إنتاجه بالتحديد والدقة في كل عام ... ولكن ظروف الفنان الخاصة ومشاعره لهما في عمله دخل كبير، وربما مرّت به لحظة خاطفة كان لها في قريحته أعظم تأثير، كما أنهم يعلمون هناك أن الفنان ليس آلة تسير دائماً إلى الأمام ... فأجر عمل لشكسبير ليس هو خير أعماله ... إنما الفنان كالطير، في علو وانخفاض حسب تيارات الجو النفسي التي تصادفه ... تريثوا قليلاً أيها الشبان ... وادرسوا تاريخ الآداب والفنون في البلاد الأخرى!

على أن الذي يبدو لي من خطاب هذا الشاب أن منشأ حيرته هو اشتغالنا بالصحافة! لكنه يقول: أقد اكتفيتكم بما تكتبون في الصحف؟ وفي هذا أراه على شيء كثير من الحق ... الصحافة هي سمة العصر، وقد احتوت الأدب اليوم في كل مكان لا في مصر وحدها.

ومثل هذا يقال عن السينما والإذاعة! ... عمالقة ثلاثة تفتح اليوم أفواهها لتبتلع الأدب والفكر والفن وتهضمه وترسله بعدئذٍ كالرذاذ الخير العميم فوق ملايين الناس! عمالقة اليوم ألسنة الاشتراكية: الصحافة والسينما والإذاعة، أعداء ألداء الأرستقراطية الفكر وثقافة الخاصة وفن الصفوة ... إنها تريد أن يكون الأدب والفكر والفن غذاء نافعاً للملايين!

(أخبار اليوم ٢١/٨/١٩٤٨م)

تبعاتنا نحو الشباب

عندما كان يقول لي أحدهم إن للكتابات أثراً في تفكير الشباب كنتُ أسمع هذا القول، ولا أجد فيه بأساً ولا خطراً ... لم أكن أَتَبَيَّنُ عندئذٍ أن هذا كلام يَجُرُّ إلى تَبَعَةٍ من التَّبَعَات ... ولكن ... يظهر أن ليس أخطر من إنسان يؤثّر في عقل إنسان غيره!

رأيت كثيرين من الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد المغرب في طلب العلم، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية ... فإذا هم، لدهشتي، يفكرون ويشعرون شعور «محسن» وتفكيره في كتاب «عصفور من الشرق» يوم ذهب منذ ربع قرن إلى الغرب ... يرون مثله في الأمريكي رجلاً لو فتحت صدره لوجدت «دولاراً» في موضع القلب! ويهيمون مثله باحثين هناك عن «الروح» وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة: هي روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ومنابعها ... ثم يسيرون خلف «محسن» الآخر في كتاب «عودة الروح» ينقبون كما نَقَّبَ عن منبع ميراثهم الثقافي والروحي في «رواسب الآلاف» من السنين الكامنة في ضمير مصر، ريفها وأهلها الصادقين ... ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصري ويرددون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته ... إلخ.

أمن الخير أن ندع هذا الشباب يهيم في مثل هذه المشاعر والأفكار؟ أم أن من الخير أن نصده عنها اليوم قليلاً ونقول له: لا تسرف في تقديس ماضيك! ولا تجعل مُرَكَّبَ النقص الذي استولى على نفس «محسن» يستولي عليك، فتخاف على حضارتك المغلوبة أن تغزوها الحضارات الغالبة ... اغترف بشجاعة من كل منبع، وخُذْ من كل ميراث ... لتُثْري نفسك ويتسع أُفُقُك.

– قلت ذلك بالفعل لأديب مثقف ... فقال:

– لن نتبعك في هذا القول، نحن نفضل أن نؤمن بمحسن الصادق، هو الذي يعبر عن شعورنا الحقيقي.

فقلت باسمًا: تتركني وتصدق كتابين سخيفين، وُضعا فيما مضى ... ليس فيهما من الفن والكمال.

فقاطعني قائلًا: إن «آلام فتر» لجوته قاصرة في فنها، ناقصة في براعتها وإتقانها بالقياس إلى قصص «سومرست موم» و«توماس مان» ولكن قيمة الكتب ليست أحيانًا في كمالها الفني، بل في استطاعتها أن تعيش في حياة طائفة من البشر.

عندئذ قلت صائحًا: هاهنا تَبَعَةُ الكاتب الكبرى! إن عقوبة الشنق والحرق قليلة على كاتب يجعل جيلًا يعيش في أفكار ضارّة أو خطيرة!

ووجه الضرر في أفكار القديمة هي أنها تجعل الشاب يتخذ من روحانيّته الشرقية ورواسب حضارته المصرية سجونًا وحصونًا تعزله عن تفكير العالم، وتمنعه من المساهمة في النشاط الفكري الإنساني العام بقوة وشجاعة، دون أن يرى بهلع في الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانًا تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من بين جنبيه!

إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطغى عليه حضارة من الحضارات ... فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى؟ كل من أراد أن يكتب عندنا قصّة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح «قصة مصرية» وعنى بأن يُجري حوادثها في الأحياء الوطنية ويصبغها صبغًا عنيقًا بالألوان المحلية، كل ذلك ليقنع نفسه بأنه يصنع فنًا قومياً ذا روح مصرية أصيلة ... كل هذا نوع مُرَكَّب النقص. وهذا الخوف لا مُبرّر له ... ان الروح المصري الأصل يستطيع أن يطبع أي موضوع يمسه، ولو كان في محيط أجنبي ... كما استطاع الروح الإسلامي أن يطبع بطابعه فنّ العمارة الذي استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين ... وكما استطاع شكسبير أن يطبع بشخصيته الأساطير التي نقلها عن الإيطاليين والدنماركيين والشرقيين.

أيها الشباب! ... لا تفكروا بعد اليوم بعقلية «محسن» ... تلك كانت عقلية شباب الثورة المصرية والبعث القومي ... نحن اليوم قد بعثنا ... انهضوا للعمل ... وواجهوا العالم بعقلية «إنسانية» لا تعوقها نعرة من النعرات ... وسّعوا آفاقكم ولا تخشوا على روحكم!

خطأ آخر من أخطائي ... وتَبَعَةُ من تبعاتي نشرت منذ أعوام عديدة في صفحة ١٠٥ من كتاب «تحت المصباح الأخضر» هذه السطور:

«... إن سفور المرأة في مصر قد سبق سفور الأديب. من أجل هذا نرى جانبًا كبيرًا من أدبنا الحديث ما زال أدبًا «حبيسًا» تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة ... أدب صناعة،

وأدب «علب محفوظة» من التعبيرات المستعارة والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين.

أما أدب الهواء الطلق، أدب التعبير عمّا في أعماق النفس في حرية وأمانة وإخلاص، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الأدمية. هذا الأدب الخارج من القلب ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة. هذا الأدب العالمي الذي يؤثر في نفس كل أمة وكل جنس وكل آدمي؛ لأنه ينبع صافياً خالصاً حارّاً من قلب آدمي. هذا الأدب حظُّنا منه قليل؛ لأنَّ حظُّنا من الصراحة والصدق قليل ... إلخ.

هذا كلام جرّت به الأقلام اليوم كثيراً ... كما ردّدت الألسن عبارات «الفن والحياة» و«الفن والشعور» ... إلخ، وهو كلام في جملة صحیح، والخطأ فيه يسير ... على أن الواجب يحتم عليّ أن أخطئ نفسي في بعض المواضع ... إن هذا الكلام على إطلاقه يحتاج إلى تصحيح، وبعض الكلمات تحتاج إلى تحديد ... لقد أحييت وزارة المعارف ذكرى أبي العلاء المعري، وأرسلت إليّ نسخة من كتاب «سقط الزند» فعكفت على مطالعته وخرجت من ذلك أقول:

فن هذا العبقرى «رهين المحبسين» ... أهو فن هواء طلق وقلب وشعور وحياة؟! أم هو فنُّ رجل ضرير حبيس حجرة مغلقة يمتعنا حقاً ... ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا بقدر ما يثير تفكيرنا، ولا يهز قلوبنا بقدر ما يهز رءوسنا ... ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة ولكننا نبلغها بذهننا بعد كدٍّ وجِدٍّ وغوص؟!

إذن يجب أن أصحح للشباب كلامي المطلق الذي نشرته منذ أعوام ... وأن أقول لهم إن الشعور الحارَّ وحده بما يثيره من انفعال، ليس هو كل الفن، ولا هو خير الفن في بعض الأحيان ... لأن المتعة التي تأتي عن غير غوص هي في أكثر الأحوال رخيصة ... و«آلام فرتر» العاطفية أقل رتبة في نظر جوته نفسه وتاريخ الأدب من «فاوست» الذهنية. خطأ قولي السابق أتى من أنني لم أحدد معنى «القلب» ... القلب في الفن هو الصدق. لا الصدق بمعناه الضيق، المقصور على الشعور العاطفي أو الوجداني ... بل أيضاً صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى، ولكن «الحياة» في الفن «ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة» ... وليس من السهل تصوّر فن منفصل عن الحياة إلا أن تتمثل فن الزخرفة الإسلامي، الذي لا يصور زهوراً ولا طيوراً ولا حيواناً ... ويقوم على تخطيط هندسي ... فن عريق بديع لا شك فيه، نسبته إلى الحياة التي نعرفها تحتاج إلى مشقة التخريج ... هذا التجريد الذهني في الزخرف الإسلامي يماثله

التجريد الذهني في الفن المصري القديم، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم. لقد كان همُّه أن يحيي الفكرة في الحجر لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق ... مهما يكن من أمر تفضيلنا هذا النوع أو ذاك فإن اختلاف العقلية والاتجاهات والأنواع في الأدب والفن، يحملنا على أن نوسّع معنى «الحياة» حتى تشمل كل هذه الألوان من الآداب والفنون ... لا بد أن تكون (الحياة) في الفن ليس فقط كل ما يقع في العالم الخارجي، ويضطرب فيه الإنسان بحسه وقلبه ومشاعره، بل أيضًا كل ما يقع في العالم الداخلي، ويستخرجه الإنسان بفكره وذهنه وتأملاته ... إن «الحياة» تسكن في كل جزء من أجزاء الإنسان الحي ... في قلبه وفي غريزته وفي رأسه ... ولو جئت بإنسان، شاعر أو مفكر وحبسته في جُبٍّ، وأغلقت عليه بسبعة أختام، وتركته الأعوام، لأخرج بعد بعد كل ذلك حياة.

ذلك بعض من تلك الأخطاء التي تركناها تسعى في جحور الكتب إلى وعي الشباب دون انتباه ... حبًّا لو عدنا من حين إلى حين. ... نراجع ما نشرنا ونسترجع ما أصدرنا ... كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدي الناس أوراق العملة الممزقة القديمة. كلما مر عليها قدر من السنين!

(أخبار اليوم ٢٨/٥/١٩٤٩م)

إيقاظ التفكير

جاءتني رسالة من أديب فاضل يقول فيها:

«... قرأت في إحدى المجلات نقدًا عنيفًا لقصة من قصصك. فشرعتُ لتَوَيُّ أعد دفاعي في حرارة وإيمان، وما انتهيت منه حتى عجبْتُ لنفسي ... فقد تذكَّرتُ أنني لم أقرأ هذه القصة بعد!... ولكني مع ذلك برمت وصحّت في ثورة انفعال: لماذا يصمت الحكيم هذا الصمت كله؟ لقد كانت زَلَّة. وإنني لأستميحك مغفرة لأن ثقتي بك لا يمكن أن تنال منها مقالات ... إلخ.»

إنني أشكر هذا القارئ الكريم على هذه الثقة الغالية باعتباري إنسانًا ... ولكنني أرفض هذه الثقة باعتباري كاتبًا ... إن مهمة الكاتب ليست في حمل القارئ على الثقة به، بل في حمله على التفكير معه ... ما أرخص الأدب لو أنه كان مثل السياسة طريقًا إلى اكتساب الثقة! لا ... إن الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي ... لا أريد من قارئ أن يطمئن إليّ، ولا أريد من كتابي أن يريح قارئ ... أريد أن يطوي القارئ كتابي فتبدأ متاعبه ... فيسد النقص الذي أحدثت.

أريد من قارئ أن يكون مكملًا لي، لا مؤمنًا بي ... ينهض لبحث معي ولا يكتفي بأن يتلقى عني ... إن مهمتي هي في تحريك الرؤوس، الكاتب مفتاح للذهن ... يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم.

إن مهمة الكاتب في نظري هي تربية الرأي، لذلك أرى من واجبي أن أصمت دائمًا «هذا الصمت كله» عن نقد الناقد. فالناقد صاحب رأي ... فكيف أصده وأنفره، بينما مهمتي في إيجاده وتشجيعه؟

قد يقول قائل إن من النقد من يفسد فكرة الأثر الفني بجهله أو تجاهله وبغرضه أو تحامله ... ولكنني أقول: حتى هذا النوع من النقد يعاونون على تربية الرأي من حيث

لا يدرون ولا يريدون ... فالمطلع على النقد أحد فريقين ... فريق يصدق ويسلم دون بحث أو تمحيص ... وهذا فريق من لا رأي له، أو من لم يهتم بعدُ بتربية الرأي فيه ... وفريق لا يقبل التصديق والتسليم قبل الرجوع إلى الأثر الفنيّ يطالعه حرّاً من كل قيد ليستخلص رأياً فيه بنفسه لنفسه.

هذا الفريق الأخير، على قلّته في بلادنا، هو أساس المجتمع الحر، الذي يسعى الأدب جاهداً في إقراره وتقويته.

وما دام هدفنا تربية الرأي فيجب أن نترك الناس أحراراً ينقدون ... وبغير ذلك يكون مثلنا مثل ذلك الذي يُكَمِّم أفواه أطفاله ويضع في أيديهم وأقدامهم الأغلال خشية أن يَمْلُكُوا البيت صياحاً. وينهالوا على التحف تحطيمًا.

إنه خير عندي أن يحطم أطفالنا تُحَفِي، وأن يؤذوا سمعي من أن أَشَلَّ عضلاتهم وأعطل نُموَّهُم ...

إن الكاتب الذي يظن أن عمله انهار لقولة قائل، وجهوده ضاعت لكلمة ناقد، يهب جزعاً فزعاً يدافع ويُفَنِّد، لهو كاتب يخلط بين شخصه وواجبه.

إن واجب الكاتب يُحْتَم عليه أن ينزع شخصه من عمله ... وأن يدع هذا العمل لمصيره ينطلق وحده يحدث أثره في الناس.

وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل في الناس، هو أن يجعلهم يفكرون تفكيراً حرّاً، وأن يدفعهم إلى تكوين رأي مستقلٍّ وحُكْم ذاتي.

الفن إذن أداة من أدوات خلق الذاتية.

وهو لا يستطيع أن يؤدي هذه الرسالة إلا في مجتمع حرّ.

لذلك لم يخطئ أولئك الذين قالوا: «الفن هو الحرية» يجب ألا يقوم في المجتمع حائل يحول دون تحقيق ذاتية الإنسان.

ويجب ألا يقتصر عمل الفنان على إمتاع الحس وإراحة خاطر وتخدير الشعور، بل يجب أن يرمي إلى إيقاظ التفكير، وتأكيد الذاتية وتدعيم الشخصية.

لذلك نرى الفن لا يزدهر عادة إلا في مجتمع بزغت فيه عوامل الإحساس بحرية الرأي وذاتية الفرد.

وترى الفن لا يموت عادة إلا في مجتمع خُنِقَتْ فيه حرية الفرد: وصُودر فيه التعبير عن الرأي، لأن الفنان يجد عمله مُعَطَّلاً عندئذٍ من ناحيتين: من ناحيته هو الذي لا يستطيع أن ينشئ فناً بتفكير حرّ، ومن ناحية الناس الذين وقفت عقولهم، في هذا الجو الخانق، عن النمو.

فالجو الخانق إذن يصيب بالعطب والعطل، في عين الوقت. أداة الإرسال وأداة التلقي

...

وبهذا يتم الشلل الفكري في الأمة، وتكف شخصيتها عن النمو والنضج، وتظل بلا حراك في طور بدائي من الرُّقْيِ البشري!

من أجل ذلك أرى أنبل جهاد للكاتب هو في سبيل المحافظة على أداة الفكر والرأي ... لأن هذه الأداة هي في الكيان المعنوي بمثابة القلب مضخة يجب أن تعمل حرة على الدوام، لتكفل النمو والنضج والرقى للنوع الإنساني.

(أخبار اليوم ٢/٤/١٩٤٩م)

الشحاذون

إن تعاقب الوزارات السريع في مصر، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب «المعالي» لا يصنعون شيئاً غير الانتظار في «ميادين» السياسة، ممدودي الأكف. ينتظرون ماذا هؤلاء المتعطلون؟ ينتظرون دورهم في العودة إلى الركوب.

نعم. إن الحكم أصبح الآن مثل أرجوحة «الخيول الخشبية الدائرة» التي يركبها الأطفال في مقابل مليمات، ولو أعطي طفل ألف مليم لأنفقها كلها في هذه اللعبة اللذيذة، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبي المطلي بالذهب، المُلَوَّن بأزهي الألوان الخادعة، وأن دوره ينتهي ورأسه يميل إلى الدوار، فلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره، وفي قلبه الصغير حسرة. وفي عينيه الزائغتين علامات الصبر النافذ، إلى أن تنتهي الدورة فيخفق قلبه أملاً في أن يعود إلى الركوب ... وهكذا دواليك!

أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور، فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبي تملّكه الغرور، وظن أن هذا غاية الأمل، وأنه قد وصل، ويلعب برأسه دوار «الأرجوحة» أو دوار السلطة الباطلة و«الفروسية» الكاذبة، فيقنع بذلك ولا يفعل شيئاً غير ازدراء الواقفين في الانتظار وهو يمر بهم مرَّ البرق متعالياً متصايحاً صياح اللذة والظفر! فالحياة في مصر لهو في لهو، وتعطلُّ إلى جانب تعطلُّ، وفراغ إلى جانب فراغ ... الجميع من شُبَّان وسياسيين، وقادة ومقودين، لا عمل لهم غير التطلع إلى خيول «المناصب الحكومية» الخشبية وهي تدور!

وهذا الروح العام قد أترَّ في روح الشعب كله، فنحن لا نكاد نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهي، ويمدون أيديهم يطلبون شيئاً، لقد سَرت

روح البطالة والسؤال في كل طبقات الشعب، الجاهل منها والمتعلم، وكِدْنَا نعتقد أن مصر قد نسيت أن في الوجود شيئاً يُسمَّى العمل والكدح والاعتماد على النفس، مصر أصبحت بلداً تخفق عليه راية «المتسول» العام، وهنا الخطر الداهم، ولا أبالغ إذا قلتُ: إن روح «الشحاذة» موجود في كل نفس مصرية في الوقت الحاضر، فالوزير الذي تسوّل طويلاً في انتظار منصبه لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه الله، فيثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومي في التخلص من هؤلاء السائلين.

وتمكننت هذه العادة المزدولة إلى حد نرى معه بعض الناس ينتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقروها «شحاذة» وإلى حدٍّ أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألني نسخة من كتابي «شحاذة» ولا أستطيع أن أجلس في مكان حتى أسمع من حولي أصوات الإلحاح في سؤال شيء من الأشياء.

حقيقة أن الحياة في مصر أصبحت لا تُطاق، فإمّا أن يتغير هذا الروح العام، وإمّا أن نياس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام.

على أنني أعود فأقول دائماً إن الذنب في كل هذا واقع على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم والسياسة، فهُم الذين علّموا الشعب كله وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح، ولو أن الشعب رأى رءوسه ورجالاته يعملون في سكّون، لخجل وعمل هو أيضاً بغير صخب، ولأصبحنا حقيقة شعباً مُتَحَضِّراً، يعمل ولا يتسول.

أريد أن أضع تحت أنظار وزرائنا مثل أبى بكر يوم وَلِيَ الخلافة، فقد واصل عمله في بناء الدولة الفتية حتى رضي واطمأنَّ، فجهز إبله ذات صباح، وأراد أن يخرج في تجارة له، فاعترضه الناس دهشين:

– كيف تخرج في تجارتك وأنت الخليفة؟

– وكيف أعيش وتلك صناعتى؟!

نعم، هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قَطُّ حتى ذلك الوقت، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منه، إنما هو في نظره واجب محتوم عليه كعضو من أعضاء الأمة، أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغي أن يكفلها عمل آخر وكدح آخر.

(آخر ساعة ٤/١٢/١٩٣٨م)

الساقية تدور

يروى الفيلسوف الصيني «لي هتز» هذه الأسطورة المملوءة بالحكمة:
فوق تلٍّ من تلال غابة نائية كان يعيش رجل شيخ مع ابن له وجواد ... ففي ذات صباح هرب الجواد واختفى ... فأقبل الجيران على الشيخ يعزونه في نكبته بفقد جواده فقال لهم الشيخ: ومن أدراكم أنها نكبة؟
فصمتوا ... وانصرفوا واجمين ... ولم تمض أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من تلقاء نفسه، لا وحده، بل مصطحباً معه عديداً من الخيول البرية ... فعاد الجيران إلى الشيخ فَرِحِينَ مهنئين بهذا الغنم الوفير، وهذا الحظ السعيد ... فنظر إليهم الشيخ بهدوء وقال: ومن أدراكم أنه حظ سعيد؟
فسكتوا مذهولين ... وانصرفوا متحيرين ... ومَرَّتْ الأيام وجعل ابن الشيخ يُروِّض الخيول البرية ... فامتطى منها جواداً عنيداً، فسقط من فوق صهوته إلى الأرض، فَكُسِرَتْ ساقه، فرجع الجيران مرة أخرى إلى الشيخ محزونين، يبيثونه الهمَّ لِمَا وقع لولده، وَيُعَزُّونه في هذا الحظ العاثر.

فقال لهم الشيخ برفق: ومن أدراكم أنه حظ عاثر؟
فانصرفوا صامتين ... ومضى العام، وإذا حرب تقوم ... وَجُنْدُ الشباب، وأُرْسِلُوا إلى الميدان، فلاقى أكثرهم الحتف إلا ابن الشيخ ... فإن العرج الذي بقدمه أعفاه من الذهاب إلى الحرب، وأنقذه من ملاقات الموت!
إلى هنا تنتهي قصة الفيلسوف الصيني ... ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقب السعد والنحس على الحادث الواحد ... ذلك أن لكل شيء نهاره وليله، يدوران حوله بغير انقطاع ... ولكن الإنسان في نظرته القصيرة وذاكرته الضعيفة لا يرى الحادث إلا في

حلقاته المنفصلة وأجزائه المتقطعة ونتائجه المؤقتة، ومؤثراته المفاجئة، فعينه لا تستطيع أن تشملها في جملة؛ لأن جملة ممتدة في الغد، وعين الإنسان لا ترى الغيب. ولو استطاع إنسان أن يشمل بنظره الأمل واليوم والغد ... وأن يتتبع حادثاً واحداً أو رجلاً بالذات لرأى العجب ... فهذا الغني الذي يملك الملايين، سرى أمواله قد بددها وريث ... وهذا الوريث سيكون له أولاد فقراء ... ومن هؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة ... وهكذا دواليك ... يأتي المال من العدم، ويذهب المال في العدم، ويولد من السعد نحس، ومن النحس سعد ... ساقية لا تكف عن الدوران، ولا تقف طول الزمان ... ليس هناك في حقيقة الأمر حظ زاهر ولا عاثر... لأن الساقية الدوارة لا تبقي أحداً في موضعه، ولا شيئاً في مكانه ... إن ما نسميه «الحظ» ليس إلا وقوف نظراً المحدود، على وضع من الأوضاع في وقت من الأوقات.

وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية ... شأننا في ذلك شأن المشاهد لقصة تمثيلية ... إنه يضحك أو يبكي لكل ما يصيب البطل دون أن ينتظر ختام الرواية ... لعل أداة الشعور والإدراك فينا، قد جعلت على هذا التركيب المناسب لحياتنا القصيرة، فنحن نأخذ كل حادث يمر على أنه البداية والنهاية. لا أنه الحلقة في سلسلة طويلة.

إن الإنسان الذي أُعطيَ الحكمة، ليس في حقيقة الأمر إلا ذلك الذي أُعطيَ العين التي ترى الأشياء في جملة لا في جزء منها، وفي تعاقبها لا في وقوفها ... تلك العين التي تبصر الساقية في دورانها ... وهذا ليس بالأمر الهين ... إنه للبشر من أصعب الأمور ... من أجل هذا كانت الحكمة في الأرض نادرة ... لأن الحكمة وحدها هي التي ترى الساقية وهي تدور.

(أخبار اليوم ٩/٤/١٩٤٩م)

ذُمَّ بِضَاعَتِكَ تَبِعْهَا

أراد الكاتب الأمريكي «وليم سارويان» أن يعرض للبيع بيتاً يملكه، فنشر في الصحف هذا الإعلان:

«منزل سيئ الموقع، غير صالح للسكن ... إذا كان أمره يعنك، فإمّا أن تستعلم عنه بالتليفون، وأما أن تقوم بمعاینته بواسطة عالم من علماء النفس»
تُرى هل ينفع مثل هذا الإعلان في جذب المشتري؟ في اعتقادي أن أفواجاً من الناس قد هرعوا لمُشاهدة مثل هذا المنزل ... وفي يقيني أن هذا المنزل الذي كال له صاحبه بدل المدح ذمّاً قد بيعَ بأبهظ ثمن!

إن صاحبه الكاتب هو الذي أثبت بمثل هذا الإعلان أنه عالم من علماء النفس! لقد درس بلا شك نفسية الجماهير ... وأدرك أنها قد اعتادت أن ترى البائع يمدح بضاعته وهو يعرضها للبيع ... وأن أقصى ما بلغه تفنن البائعين في الإعلان أن يلفتوا النظر، وأن يثيروا الاهتمام، في نطاق التنويه بجودة البضاعة ... لذلك يمر الجمهور بهذا التنافس في التنويه بمزايا البضاعة ... وهو يهمس، غير مصدق: «طبعاً ... طبعاً ... هذا هو المنتظر من كل بائع!»
ويمضي منصرفاً عنه.

ولكن الجمهور ما اعتاد أن يرى بائعاً يذمّ بضاعته ويسبّها علناً، ويبرز عيوبها، ويوضح مثالبها، ويظهر مساوئها ... وينصح للمشتري أن يتبصر، وأن يكون على حذر ... عهد الناس بالبائع أن يتخذ من المشتري قنيصة ... وأن يأخذه إلى حدّ ما بالخديعة ... وأن يكون كل منهما في طرف مختلف، ومعسكر معارض ... فيماذا يعلنون أمر هذا البائع العجيب الذي ينضم إلى جبهة المشتري ويكشف له عن سره، وينتصف له من نفسه، ويمكن له من صدره؟!

هذه الحيرة، وهذا العجب، هما اللذان يدفعان أفواج الناس إلى الذهاب لمعاينة البضاعة المذمومة، واستجلاء الحقيقة في أمرها.

وهم يذهبون، ومن بينهم مُشترون، قد وطَّنوا النفس في أعماقهم على الشراء، بأي ثمن، دون أن تدرك عقولهم الواعية، أن الطبيعة البشرية المرگبة تجعلهم يرتابون في اعتراف معترف ... إذا كان معارِضاً لمصلحته الظاهرة. بضاعته رديئة فإنهم لا يصدقون ... وإذا عاينوا الرداءة بأنفسهم خُيِّل إليهم أنها ليست رديئة إلى هذا الحد الذي يبيح لصاحبها أن يعلنه ويشهر به.

بل إن في اعتراف البائع برداءة بضاعته استدراكاً لعطف المشتري ... كاعتراف المرأة الخاطئة على الملاء ... إنه يستنهض مروءة كثيرين، ممن يحبون المفارقة بالتضحية، فيقدمون أمام الملاء يطلبون يدها!

أغلب الظن إذن أن صاحب هذا المنزل قد نجح في بيعه بهذا الإعلان بيعاً مربحاً ... حتى وإن كان المنزل سيئ الموقَّع حقيقة، غير صالح للسكن.

إن مجرد تصريحك بعيوبك فضيلة ... هذه الحكمة قد فهمها صاحب الإعلان حق الفهم ... وبذلك استطاع أن يمحو عيوب منزله في عيون كثير من المشتريين ... وكان هو الرابع آخر الأمر.

ولكن ...

هل في مقدور كل البائعين أن يلجئوا إلى هذه الطريقة؟

إنها مجازفة ... ما من أحد ينكر.

وقد يقول بائع وهو يرتعد: «وإذا فعلتها وذممت بضاعتي فصدَّق المشتري وأخذني بكلمتي، ولم يدفع فيها شيئاً ... ماذا يكون الحال؟»

جائز أن يحدث هذا ... خصوصاً في بلاد حُب الاستطلاع قليل في أهلها ... وسرعة التصديق منتشرة عند أغلبيتهم.

ولكن ... أليس كل نجاح مرهوناً بالمجازفة.

(أخبار اليوم ١٦/٧/١٩٤٩م)

ألف ليلة وليلتان

شهرزاد: لقد فرغتُ من قصصي يا شهريار ... ونحن الآن في الليلة الثانية بعد الألف! فإذا أردتَ أن تقتلني، كما فعلتَ بنسائك الأخريات، فافعل.

شهريار: أقتلك أنت؟ ... كلّا ... إنما أوَدُّ الآن لو أقتل أشخاصًا آخرين!

شهرزاد: من هم؟

شهريار: وزرائي: أولئك المراءون المنافقون، الذين ما عنوا قطُّ بأن يُطلعوني على ما أطلعيتني أنتِ عليه ... لشد ما كنت أجهل الناس، بل شد ما كنت أجهل نفسي ... لطالما حسبتُ الدنيا طعامًا وشرابًا ونساء! ولكنك أبرزت لي في أحاديثك عالمًا زاهرًا بشتّى المعاني والألوان، وأظهرت لي الناس في مختلف أحوالهم وطبقاتهم ... لقد رأيت الفقر والجوع والعري والبؤس والظلم واللؤم، إلى جانب الغنى والترف والرفاهة والنعيم! لقد كشفت لي عن الجانب المستور في سواد شعبي، فعلمتُ إلى أيِّ مصير يسير ... قصصك يا شهرزاد، إن هي إلا تقرير خطير، عرفت كيف تقدمينه إليّ، لأتدارك الأمور، قبل فوات الأوان!

شهرزاد: إنني ما قصدتُ يا مولاي إلا تسليتك، وإيناس وحشتك في تلك الليالي الطوال! **شهريار:** أحمد لك هذا التواضع ... إنك بارعة في مخاطبة الملوك ... اطمئني! لن أمعن في البحث عن مقصدك ... يكفيني أنني عرفتُ وفهمتُ ... لقد كنت لي مرآة صادقة يا شهرزاد! رأيتُ فيها حقيقتي ... وحقيقة شعبي! وتلك أنفُس مرآة يستطيع أن يعثر عليها ملك!

شهرزاد: هذا إطرء يسرني ويخيفني ...

شهريار: ولماذا يخيفك؟

شهرزاد: ليس أقصر من عمر مرآة في يد ملك! إنه قد يحطمها إذا ضاق ذرعًا بما تعكس من حقيقة!

شهریار: لستُ أنا الذي يفعل ذلك يا شهرزاد ... ربما كنتُ كذلك فيما مضى ... أما اليوم فأنا رجل آخر! ألا تبصرين في وجهي تغييرًا؟ ألا تلمحين في عيني بريقًا؟ ألا ترين أنني مقدم على أمر جلل؟!

شهرزاد: أرى حقًا أنك تغيّرت يا مولاي!

شهریار: نعم ... أصبحتُ رجلًا أعرف واجبي وأدرك مهمتي ... وأعلم ما يجري حولي ... لم أعد ملكًا يدفن رأسه في وسائد النساء، لقد رفعتُ بيدك يا شهرزاد رأسي برفق كي أبصر، وجذبتني بلطف عن جو العطور والبخور، وجعلتني أفتح نافذتي المسدلة الأستار، لأستنشق رائحة الخطر المقبل عليّ.

شهرزاد: أيُّ خطر يا مولاي؟

شهریار: أخبريني بالصدق يا شهرزاد ... ماذا يقول الناس عني ... تكلمي ... ما بالكِ تصمتين؟ وما بال الحيرة تعلو وجهك، والحرَج يعقد لسانك؟ إذن فاسمعي ... ليس من العسير عليّ الآن أن أستشف رأي الناس فيّ، إنهم ولا ريب يقولون في كل مكان: «ماذا صنع لنا ملكنا شهریار غير أن أخذ من بيننا العذاري، يستمتع بأجسادهن في كل ليلة، ويسلمهن للجلاد كل صباح ... أما نحن الشعب فما فُكرَ فينا وفي بؤسنا وشقائنا بمثل ما فُكرَ في متعته ولذّته.»

أليس هذا ما يقولون؟ تكلمي يا شهرزاد واصدقيني القول.

شهرزاد: لا شك أنهم قالوا ذلك ... ولكنك لستَ وحدك المسئول ... معك وزراؤك!

شهریار: أتمزحين يا شهرزاد؟ لو كان وزرائي مسئولين حقًا معي لأخبروني بما يُقال ... كلهم ولا ريب قد سمعوا مثلك ما يقول الناس ... ولكنهم يحجمون عن إخباري ... لأنهم يعلمون أنه لن يقع عليهم وزر ولا ضرر ... فإن الرياح لا تصيب إلا تيجان النخيل ... أما هم ففي الظلّ آمنون يتلقون الثمن، في رأسي فكرة يا شهرزاد ... أنتِ أولى مَنْ أطلعه عليها: سأقتل هؤلاء الوزراء!

شهرزاد: تقتلهم؟

شهریار: لا تفزعي ... ليس بالسيف أقتلهم ... ولكن بشيء آخر.

شهرزاد: بماذا؟

شهریار: بالمسئولية ... بالتبعة ... سأضعهم هم في مَهَبِ الريح، سأقول لشعبي: اختر لنفسك وزراءك ... واشترط عليهم شروطك ... وألزمهم بحاجاتك، واجعلهم منوطين بمطالبك، مسئولين عن هنائك ... فإذا قصروا وتهاونوا فاعزلهم واخر غيرهم ... وأنا مُقرُّك على كل تصرفاتك؛ لأن كل غايتي مصلحتك أنت وحدك يا شعبي، وكل أمني هو في سعادتك ورفاهتك.

شهرزاد: أو تفعل ذلك حقاً؟

شهریار: وما الذي يمنعي من فعله يا شهرزاد؟ أليس من واجبي أن أفتح للشعب طريق هنائه؛ لبحث عنه بنفسه؟ لا أريد أن يُقالَ بعد اليوم إنَّ مفتاح هذا الطريق تحت وسائدي الموشاة ... سألقي به إليهم من هذه النافذة!

شهرزاد: وماذا تصنع بعد ذلك يا مولاي؟

شهریار: أشرف عليهم، أراقبهم من علٍ وأرسل إليهم مع النسيم أحرَّ قبلاتي وأعز تمنياتي!

شهرزاد: أهي قصصي التي أوحث إليك بمثل هذا الشعور النبيل؟ إنني إذن لأمراة عظيمة! أعترف لك أنني ما كنتُ أتوقع أن يحدث هذا كله، يومَ جئتُك في الليلة الأولى.

شهریار: وأنا ما كنتُ أتوقع إلا أن أرى دمك يُسفكُ في اليوم التالي.

شهرزاد: ها قد مضت ألف ليلة ثم ليلتان ولم تسفك دمي ولم تقتلني!

شهریار: حقاً يا شهرزاد! لقد شغلني ذهنك عن دمك وعن فمك!

(آخر ساعة ١٨ فبراير ١٩٤٨م)

